

الحروب العثمانية الفارسية
وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع — القاهرة
٧ شارع السراى بالمنيل . ت : ٩٨٧٩٢٤
ش جمال عبدالناصر — حدائق حلوان — مدينة الهدى . ت : ٦٨٨٠٧١

د. محمد عبد اللطيف هريزي

الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ صدق الله العظيم (الأنفال ، ٤٦)

لقد قيض الله للدولة العثمانية أن تحمل لواء الجهاد الإسلامى فى شرق أوروبا إبان القرن السابع الهجرى ، ولم يكد القرن العاشر أن ينتصف حتى دانت كل أمصار أوروبا الشرقية لهذه الدولة ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية بعد أن كان مركزاً للحضارة الهيلينية وارتفع المد الإسلامى فى ظل هذه الدولة ، وبلغ حداً لم يبلغه من قبل فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الإسلامى ، وحقق الأتراك العثمانيون آمال الفتح التى استشهد فى سبيل تحقيقها المسلمون الأوائل ، وعلى رأسهم الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى (رضى الله عنه) وكادت الأندلس أن تعود إسلامية لولا أن أطلت الفتنة الفارسية برأسها لتقضى على حكم المسلمين فى أوروبا ، ولتحيل المد الإسلامى إلى جزر ، فينحسر الإسلام عن أوروبا برمتها ، ولم يبق من المسلمين إلا بقايا تذكارية لذلك العهد فى بلاد البلقان مثل : يوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا .

ولعل هذه الوريقات تكشف لنا جوانب هذه الفتنة بأبعادها الحقيقية ، وتبين لنا كيف كان مشعلوها الفرس - أي الفتنة - يحسنون إختيار الوقت المناسب للاشعال ، ولعل ما كان بالأمس يصبح لنا اليوم عبرة ودرساً .

والله ولى التوفيق

القاهرة

فى ١٤ محرم ١٤٠٨ هـ

الموافق ١٩٨٧/٩/٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

فتن الباطنية بالأناضول قبل قيام الدولة العثمانية

اتخذت القبائل التركية من سهوب آسيا الوسطى موطناً لها ، وكانت هذه السهوب تمتد من منشوريا في الشمال الشرقي وتسير جنوباً بميل إلى الغرب حتى بلاد ما وراء النهر والهضبة الإيرانية ، ثم تمر شمالاً إلى بحر قزوين والبحر الأسود ، ولم تُحل الحياة الرعوية التي عاشتها تلك القبائل دون أن تكون لها دول بين الحين والآخر وأن تقيم علاقات سياسية مع جيرانها في الصين والهند والهضبة الإيرانية . وكانت هذه القبائل تدين - إلى جانب دياناتها المحلية - ببعض الديانات القديمة المنتشرة آنذاك في وسط آسيا مثل المانوية والشمانية والبوذية والزرادشتية .. الخ

وكان أول احتكاك مباشر للأتراك بالعالم الإسلامي في أواخر القرن الأول الهجري أثناء فتح قتيبة بن مسلم لهذه الأمصار ورغم خضوع هذه الأمصار للحكم الإسلامي في أواخر القرن الثاني الهجري لم ينتشر الإسلام بينهم آنذاك بشكل واسع ، وإنما كان انتشاره تدريجياً خاصة بين القبائل غير الخاضعة للحكم الإسلامي ، ولذا تكاد المصادر تجمع على أن الأتراك اعتنقوا الإسلام طواعية وليس نتيجة لضغط من أى نوع ، ثم زادت حركة انتشار الإسلام بينهم بزيادة النشاط التجارى وبدخولهم في خدمة الخلفاء الأمويين ثم العباسيين^(١) . ولم يكد القرن

الخامس الهجرى أن ينتصف حتى أصبح الأتراك المسلمون كثرة فيما وراء النهر وخراسان ثم قامت لهم دول إسلامية ترعى السنية ، وتناهض الشيعة ، وكانت الدولتان الغزنوية والسلجوقية من أهم هذه الدول لكن مناهضة الأتراك السنيين للتشيع بدأت قبل ذلك حين كانت الدولة العباسية تستعين من حين لآخر بالجنود الأتراك لقمع فتن الباطنية والعلويين .

ولاشك أن العشائر التركية حديثة العهد بالإسلام كانت تتأثر بما هو سائد حولها من معتقدات ناهيك عن تلك التى تتفق وتراثها الدينى القديم ، ومن المعروف أن منطقتى ما وراء النهر والهضبة الإيرانية كانتا تموجان بالبدع والتيارات المارقة عن الإسلام ، وقد ساعد على اختلاط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة عدة عوامل من أهمها انتشار الشيعة وخاصة فى منطقة الديلم التى كانت مكنن المجوس ومعقل المتآمرين ضد الدولة العباسية^(٢) خلال حكم البويهيين فى القرن الرابع الهجرى^(٣) ، أى فى نفس الفترة التى زاد فيها إقبال الترك على الإسلام .

الهجرات التركية إلى الأناضول :

حدثت هجرات تركية إلى الأناضول قبل قيام دولة السلاجقة فى إيران والعراق ، بيد أن هذه الهجرات لم تكن منظمة فأخذت تنتظم تحت رعاية الحكام السلاجقة ووفق ما يرسمونه من تخطيط لها فزادت كثافة هذه الهجرات سعيًا وراء هدفين :

أولهما : اقتصادى ، نتيجة لازدياد عدد القبائل المهاجرة من تركستان الشرقية إلى خراسان وما وراء النهر وضيق المكان بها ومن ثم القحط فى الموارد .

ثانيهما : جهادى لتكون بمثابة حزام أمن تستطيع من خلاله أن تواصل غزواتها ضد الدولة البيزنطية التى تآخمت دولة السلاجقة حدودها الشرقية^(٤).

انثالت موجات الهجرة التركية بشكل مكثف بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ٤١٤ هـ (١٠٧١ م) ، والتى كان لها أبعد الأثر فى تترك الأناضول وأسلمته ، فقد استطاع المسلمون بعدها أن يقيموا دولاً فى مختلف أرجاء الأناضول وأهمها دولة سلاجقة الأناضول (الروم) ، ومنذ ذلك الحين

أصبح الاناضول ملاذا للقبائل الفارة أمام الاجتياح المغولى القادم من الشرق إبان القرن السابع الهجرى ، ونتيجة لهذا الفرار الجماعى زادت كثافة العنصر التركى المسلم فى الاناضول ، وزاد عدد الدويلات الإسلامية به . ومن الجديد بالذكر أن هذه القبائل كانت تضم عناصر إما حديثة العهد بالإسلام أو لم تعتق الإسلام بعد .

ولا شك أن وقوع الاناضول تحت نير الاحتلال المغولى وعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى كان لهما أبعاد الأثر فى الحياة الفكرية والدينية لهذه القبائل .

انتقال البدع والفرق الضالة إلى الأناضول :

كانت خراسان - المفعمة بالتراث الدينى الايرانى - تموج بالطرق المبتدعة والطوائف المنحرفة فضلاً عن غلاة الشيعة وتسرب عدد ليس قليل من هذه البدع إلى ما وراء النهر حيث تعيش القبائل التركية حديثة العهد بالإسلام فلم يكذباً القرن الرابع الهجرى حتى ظهر فى فرغانة وبخارى من أطلقوا على أنفسهم الباب أو بابا ، وتزعموا الفرق الضالة التى تستهدف التحلل من شروط العقيدة وقيود العبادات^(٥) .

ولا يتسع هذا الحيز الضيق للحديث تفصيلاً عن المبتدعين فى الدين والفرق بين فرقهم أو الفرق بينهم والشيعة ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : أن العناصر التركية حديثة العهد بالإسلام آنذاك وقعت تحت تأثير البدع الايرانية فكانت هذه البدع من بين مميزات التراث الذى حملته معها عند هجرتها إلى الاناضول .

ثانيهما : أن الأناضول بما كان فيه من تراث مسيحى رهبانى ، وبما كان يموج به من أحداث سياسية وتطورات اجتماعية كان بيئة صالحة لأن تورق شجرة البدع وتزدهر^(٦) إذ أن هذه الأحداث كانت كفيلة بإشاعة جو من القلق وعدم الاستقرار مما جعل الدهماء يلوذون بالتكيا والزوايا ويصدقون كل زعيم بأن الخلاص فى يده ، خاصة بعد فقدان الثقة فى الزعامات السياسية .

وشائج بين غلاة التصوف والتشيع :

ولكن اختلفت الطرق الصوفية المتطرفة مع غلاة الشيعة في بعض الجوانب
فهى تتفق معها في بعض المبادئ الأساسية من أهمها :

- ١ - الابتداع في الدين .
- ٢ - في مبدأ الولاية برمته وفي اشتغاله على غمط خفى من العلم والتعلم .
- ٣ - إعتقاد مبدأ التاويل في فهم القرآن الكريم وتدبر معانيه .
- ٤ - الاعتقاد بتعدد مراتب المعاني في الوحي .

ومبدأ الولاية يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة (الإمام) في المذهب الشيعى ،
لأن الإمام هو الذى يتولى المهمة والسلطة التى تخوله إياها الولاية ، ودور الإمام في
التشيع دور رئيسى ومهمته تشبه مهمة (الشيخ الصوفى) شبا شديدا ... فإذا تركنا
جانبا مهام الإمام فان ولايته ودوره كمرشد روحى يشبهان مهمة الشيخ الصوفى
في ولايته وإرشاده شبا تاما ، وكما أن الشيخ في الصوفية على اتصال دائم بقطب
زمانه كذلك الإمام في التشيع فإن جميع المهام الروحية تتصل به داخليا في كل
زمان - ... وهذا ما أكده سيد حيدر الآملى بوضوح في قوله : « إن القطب
والإمام تعبيران يحملان مدلولاً واحدا ويشيران إلى شخص واحد »^(٧) ولاشك أن
هذا التماثل في المبادئ الأساسية جعل دعاة الشيعة يجتدون في جذب المتصوفة
فكانوا يتسترون بالزهد ويظهرون بمظهر الصوفى الغارق في تأملاته^(٨) .

انتشار التشيع في الأناضول قبل ظهور العثمانيين :

لا غرو بعد ذلك أن نرى التشيع وقد شاع في الأناضول رغم حرص
حكام السلاجقة وعلماء الشريعة على مقاومته ، إذ كان من اليسير على غلاة
المتصوفة أن يتحولوا إبان القرنين التاسع والعاشر الهجريين إلى الشيعة .

وإذا تتبعنا أهم المسالك والدروب التى نفذ منها التشيع إلى الأناضول
لوجدنا أنها تتمثل في الآتى :

- ١ - الطرق الصوفية المنحرفة : كالبايائية والبكتاشية والقلندرية والكبروية
التي أعلنت عن تشيعها رسمياً .

٢ - الوضع السياسى لحكام الدولة السلجوقية فى الأناضول كمعارضين لأبناء عموماتهم فى إيران والعراق مما حدا بكثير من الشيعة والحشاشين أن يرحلوا إلى الأناضول .

٣ - تقرب المغول أثناء احتلالهم الأناضول إلى الشيعة باعتبارهم العنصر المعارض للحكام السلاجقة ، حتى لقد أعلن تيمورتاش الحاكم المغولى نفسه مهدياً^(٩) .

نخلص من كل ذلك إلى أن ظاهرة التشيع إنما هى دخيلة على الأناضول ، وقد تسربت مبادئ التشيع فى وقت مبكر قبل قيام الدولة العثمانية ، ولكن الشيعة لم يعلنوا عن أنفسهم رسمياً آنذاك بل كانوا فى طور التشرنق ، ينتظرون الفرصة المواتية للإعلان عن أنفسهم .

الباطنية والبابائية :

كثر أتباع الباطنية والبابائية فى الأناضول إبان القرنين السادس والسابع الهجريين ، خاصة فى شرق الأناضول ووسطه ، حيث تقطن القبائل التركمانية فى المناطق الجبلية الوعرة البعيدة عن النفوذ السياسى والدينى للحكومة السلجوقية ، وفى حديث المفكر التركى كوبرلى زاده محمد فؤاد (١٣٠٨ - ١٣٨٦ هـ) ما يوضح لنا أسباب تمرد هذه القبائل ويعرفنا بملاح حياتها الدينية :

« إن إسلام هؤلاء التركمان لم يكن سنياً خالصاً كإسلام أتراك المدن ولكنه كان ملفقاً من التقاليد الوثنية التركية القديمة ومن عقائد غلاة الشيعة ... وكان مشايخ هؤلاء التركمان وباباواتهم - كما كانوا يلقبون - يتعرضون بسبب قياضهم العجيبة وعاداتهم المنافية للشرع ، وحياتهم المنحلة التى تذكر بشامانات الترك القدماء - لحملات شديدة من الصوفيين السنيين ، ولكنهم كانوا مع هذا هم المنظمين والمسيطرين على الحياة الروحية فى القرن وبين العشائر ويرجع أصل هذه الحركات إلى الطرق القلندرية واليسوية لما فى الأولى من غرابة وبدع وشيعة »^(١٠) .

زادت الهوة اتساعاً بين هذه العشائر وكافة المسلمين وساعد على اتساعها التقاء أهداف الصليبيين والأرمن والمغول في بث الفرقة بين المسلمين حتى يتسنى طردهم من الأناضول ، وأى فرقة أشد من أن يتشرذم المسلمون إلى فرق وشيع يغتال بعضهم بعضاً » إذ كانت حصن كيفا وآمد وماردين معقلاً من معاقل الخوارج الذين ظلت بقاياهم أثناء حكم الأراتقة^(١١) وخاصة في المناطق الجبلية ، وكانت ماردين وديار بكر وبلاد الأرمن الواقعة بين حدود تركيا وروسيا الحالية من معاقل اليزيدية أو عبدة الشيطان^(١٢) ونتيجة لذلك كاد المسلمون في الأناضول أن يلقوا نفس مصير المسلمين في الأندلس ؛ فبينما كانوا يخوضون حرباً ضد الفناء على يد الصليبيين كان أتباع هذه الفرق من جانب والباطنية من جانب آخر يقيمون المذابح الجماعية للمسلمين السنة باتفاق مع الأرمن^(١٣) .

أما أخطر تلك الفتن قاطبة ، فتلك التي عرفت باسم البابائية . وقد أطلت برأسها في أخريات حكم السلاجقة ، بزعامة من يدعى بابا إسحق ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ هـ) ، وواضح من لقبه أنه كان من زعماء الصوفية المنحرفة من التركمان^(١٤) وقد ادعى النبوة وأطلق على نفسه « بابا رسول الله » وكانت انطلاقته من إقليم كفرسود في جبال طوروس وبدأ يدعو لنفسه في جنوبي طوروس الشرقية وآماسيا وفي كل النواحي المحيطة بهما^(١٥) وكان أتباعه يرتدون القلانس الحمراء (كما فعل القزلباشية فيما بعد)^(١٦) وأردية سوداء^(١٧) .

انتهر بابا إسحق فرصة انشغال السلطان السلجوقي كيخسرو الثاني (٦٣٤ - ٦٤٤ هـ) بقتال الصليبيين « فأمر أتباعه وكانوا كثيرين بين التركمان فثاروا في مناطق كفرسود ومرعش ، وكان هؤلاء الأتباع مهيمين قبل صدور أمره بالثورة لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعلمن الجهاد - على حد قوله - في يوم ما ، وانقضت جموعهم على المدن والقرى ومعهم النساء والأطفال وقطعان الماشية يجذبونهم الطمع في الغنائم والرغبة في الجنة - كما أوهمهم بابا إسحق ، وبددوا شمل الجيوش السلجوقية التي خرجت للقائهم واستطاعوا أن يسيطروا على مناطق ملطية وطوقات وآماسيا ... وأخيراً استطاع السلطان السلجوقي أن يجمع هذا العصيان قمعاً دامياً »^(١٨) .

يبد أن إخماد فتنة المدعو بابا إسحق لا يعنى القضاء على البابائية كتيار اجتماعى وسياسى هدام ، بل استمر نشاط الباباوات خفية ؛ يعاود الظهور كلما سنحت الفرصة بذلك ، ولم تنفك فتنهم تطل برأسها على فترات متباعدة طوال الحكم العثمانى : تارة باسم الطورلاق وأخرى باسم الصماونالى وثالثة باسم القلندرية .

ولئن اختلفت أسماؤها أو أشكالها فالغاية عند مثريها واحدة ؛ ألا وهى هدم النظام الاجتماعى والسياسى القائم على مبادئ الشرع الحنيف والتحلل من مبادئه .

فخلص من هذا العرض إلى النتائج التالية :

- ١ - جاءت البدع والفرق الضالة إلى الأناضول بمجىء القبائل المهاجرة من خراسان وما وراء النهر .
- ٢ - وجدت هذه البدع رواجاً بين عشائر التركمان فى شرق وجنوب الأناضول لأسباب تراثية وبيئية .
- ٣ - من خلالها تسربت مبادئ الشيعة .
- ٤ - اتفقت أهداف هذه الفرق والشيعة عند هدم النظام الاجتماعى والسياسى للمسلمين .

هوامش الفصل الأول

- (١) Togan, Zeki velidi, Umumi Türk Tarihne Giriş, İstanbul, 1981, 3.bs., s. 33
لمزيد من التفاصيل انظر :
أحمد كاتانجي ، فضائل الترك في أدب الجاحظ ، بيروت ، ١٣٧٩ .
ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، الحداث ٤٣٨ هـ .
- (٢) علي الشامي ، الشيعة في إيران ، تونس ، ١٤٠٠ هـ ، ص ١٣٨ .
- (٣) عبد النعيم حسنين ، السلاجقة في إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٣ .
- (٤) يتضح ذلك فيما نقلناه عن ابن الأثير :
- « في هذه السنة (٤٤٠ هـ) غزا إبراهيم ابنال الروم فظفر بهم وغنم وكان سبب ذلك أن خلقا كثيرا من الزمجا وراء النهر قدموا عليه ، فقال لهم : بلادى تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتجون إليه والرأى عندي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا وأنا سائر على إثركم » (الكامل ، نفس الجزء ، ص ٥٤٧) .
- (٥) Köprülüade, M. Fuat, Türk Edebiyatında İlk Mutasavvıflar, Ankara, 1976, 3.bs., s.18
- (٦) منذ القرن السابع الهجري والحروب لا تنقطع فهي تارة بين السلاجقة والبيزنطيين وأخرى بين السلاجقة وابناء عمومهم أو اخوتهم واخيرا بينهم والمغول .
- (٧) السيد حسين نصر ، الصوفية بين الامس واليوم ، تعرف كمال خليل اليازجي عن علي الشامي ، سبق ذكره ، ص ١٧٩ .
- (٨) يحيى بن حمزة العلوي ، الإنحزام لأفئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بدير عون وآخرون ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١٠ .
- (٩) Hizmetli, Sabri, Osmanlılardan önce Anadoluda Siilik Problemi, I.I.E.D. S.5 - Ankara 1982 باختصار عن :
- (١٠) محمد فؤاد كوبريلي زاده ، قيام الدولة العثمانية ، تعرف أحمد السعيد سليمان القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .
- (١١) بنو ارتق : حكموا في ديار بكر وحسن كيفا وآمد وماردين وخرتبرت . لمزيد من التفاصيل انظر :
- أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .
- (١٢) Turan, Osman, Dogu Anadolu Türk Devletleri Tarihini İstanbul, 1973, s. 225-226
- (١٣) Osman Turan, a.g.e., s. 76

- (١٤) من مظاهر الاثر الشيعي في الطرق الصوفية في الاناضول اطلاق هذا اللقب على زعماء الشيعة في حراسان في القرن السابع الهجري وعرف من بينهم بابا الياس (Hizmetli, Sabri, a.g.e.)
- (١٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البابائية .
- (١٦) القزلباشية اى ذوى القلائس الحمراء وقد اطلق هذا اللقب على شيعة الاناضول وبعض مناطق ايران .
- (١٧) دائرة المعارف الإسلامية ، نفس المادة .
- (١٨) محمد فؤاد كوبريلى زاده ، المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

الفصل الثانى

قيام الدولة العثمانية وجهادها الإسلامى فى الأناضول

انفرط عقد دولة السلاجقة فى الأناضول على يد المغول فى أواخر القرن السابع الهجرى واقتسم حكام الأقاليم وأمراء الحدود أراضيها ، وكان عثمان الأول رئيسا لإحدى العشائر التركية القاطنة على الحدود الغربية لدولة السلاجقة ، ثم تبوا منصب أمير حدود فى عهد السلطان كيخسرو الثالث (٦٦٣ - ٦٨٢ هـ) .

ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل الخطوات التى مرت بها هذه العشيرة لتصبح إمارة حدودية لدولة السلاجقة ، ولا لذكر الآراء المتباينة حول نسبها إلى بطون الأوغوز وحول تاريخ نزوحها إلى الأناضول ، ولكن يمكن القول بأن ثمة عوامل أسرعت بنمو هذه الإمارة ، لتتبوأ مكان الصدارة من جيرانها وتصبح دولة فى مطلع القرن الثامن الهجرى ، ولعل أهم هذه العوامل :

- ١ - غلبة العنصر التركى المسلم فى منطقة متاخمة للحدود البيزنطية .
- ٢ - ضعف الإمارات التركية الأخرى وتناحرها^(١) .
- ٣ - ضعف دولة بيزنطة وانشغالها فى حروب مستمرة مع الدول البلقانية .
- ٤ - انقسام العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة متناحرة كانت أقواها دولة المماليك فى مصر والشام .

٥ - أما أهم العوامل قاطبة فقد كان حرص الحكام العثمانيين على بناء دولتهم على أسس إسلامية من البداية وكانت أهم مظاهر هذا الحرص :

(١) وصية الأمير عثمان - وهو على فراش الموت لابنه أورخان (٧٢٦ - ٧٦١ هـ) قائلاً : « عليك يا بنى بالإلتزام بالشرع الشريف والتشاور مع أربابه في كل ما أنت مقدم عليه ، وعليك بإكرام الناس وتقديرهم حق قدرهم وتوقير العلماء منهم ، فخير الناس أنفعهم للناس ، وعليك بتعظيم أمر الله والرحمة بخلقه والجهاد في سبيله وإعلاء كلمته » (٢) .

(٢) حين استقل أورخان بدولته وضرب سكتها في ٧٢٧ هـ حرص على أن تكون هذه السكة إعلاناً رسمياً عن إسلامية الدولة ، إذ كتب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تحيط بها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة وعلى الوجه الآخر اسم أورخان .

(٣) حرص أورخان على أن يكون جيشه أداة حرب وحكم معا ، فعين القضاة والمفتين وكانوا يسرون في ركابه ويستفتيهم في كل أمر ويقضون بين الناس في كل مصر يحلون به وقد ظل منصب « قاضي عسكر » من المناصب المرموقة طوال الحكم العثماني . كذلك المفتي الذي كان يُستفتى في كل خطوة تخطوها الدولة .

(٤) تطبيق المفهوم الإسلامي للدولة من حيث عدم الفصل بين الدين والدولة ، فلم يلجأ الحكام إلى تجزئة الشريعة أو الفصل بين الحق والحقيقة بل كفّلوا للإنسان حريته المسئول عنها أمام الله وكانت طاعة أولى واجبة ما داموا ملتزمين بأحكام الله (٤) .

(٥) التخلق بالأخلاق الإسلامية ، فكان لسياساتهم العادلة وتسامحهم الديني أبعد الأثر في إقبال الأعداء من النصارى على الدخول في الإسلام ومن ثم الخدمة في الجيوش العثمانية وكفى هنا أن نستأنس برأى المستشرق الإنجليزي جيبونز (Gibbons) الذي قال في عثمان :

« سرعان ما كان أعداؤه يتحولون إلى أصدقاء ، يخدمونه ويستمرئون خدمته ، فقد اعتنق آل ميخائيل وآل ماركوزو الإسلام بعد طول صداقتهم مع

عثمان فأصبحوا يأتّمرون بأمر قاداته وهم أصحاب الأبحاد العسكرية التى تفوق ما لعثمان نفسه ، لقد كان الرجل نخبوراً على دينه بقدر ما كان متسامحاً»^(٥) .

قامت الدولة العثمانية فى دار حرب ، وتمرس أهلوها على غزو الأراضى البيزنطية ولذا لم يكن بمستغرب أن تستظل دولتهم راية الجهاد ، فوضعوا نصب أعينهم التوسع على حساب الأراضى البيزنطية وليس على حساب جيرانهم من الإمارات التركية الأخرى رغم ضعفها .

فتح مدينة بورصة عام ٧٢٦ هـ :

حين شرع العثمانيون يفتحون أراضى بيزنطية كان جزء منها يقع فى قارة آسيا بينما يقع الآخر فى أوروبا وكانت العاصمة القسطنطينية تتوسط الجزأين ، أما مدينة بورصة فقد كانت أهم مدن الجانب الآسيوى إن لم تكن أهم مدن الأناضول قاطبة ، لموقعها الجغرافى وأهميتها التجارية .

ولم يكن فتحها بالأمر اليسير فرغم استيلاء العثمانيين على القلاع المحيطة بها استمر حصارهم لها ثمانى سنوات ، وقد جنى العثمانيون ثمرة تسامحهم الدينى حين أفضل ميخال محاولة الاغتيال التى كان قد دبرها الإمبراطور ضد الأمير عثمان ، وحين سلم أفرنوز مفاتيح قلعته المشرفة على مدينة بورصة إلى أورخان وأعلن الرجل إسلامه وأصبح أحفاده فيما بعد من أشد المناصرين للإسلام فى أوروبا^(٦) عندئذ سقطت المدينة فى يد اورخان (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) . وبمقتضى إتفاق التسليم سمح اورخان لأهل المدينة أن يغادرها بأمتعتهم وأموالهم . وكان حرص العثمانيين على تطبيق هذه المبادئ الإسلامية السمحاء سبباً فى إقبال سكان كثير من المدن البيزنطية على أورخان يعلنون إسلامهم وولاءهم مثلما فعل أهل إزنيق عام ٧٣١ هـ وأزميت عام ٧٣٨ هـ .

وفى ختام حديثنا عن نشأة هذه الدولة الإسلامية نود الإشارة إلى أن العثمانيين حين شرعوا ينظمون أمور إدارتهم لم تكن جمعيتهم خاوية من الأسس الحضارية اللازمة لذلك ، فلهم من النظم الإدارية إرث عريض تمتد جذوره إلى سلاجقة إيران والعراق والعباسيين أى أن هذه النظم كانت إسلامية الأصول ،

رغم القليل الذى أخذوه عن بيزنطة .

وهكذا لم يكفد ينتصف القرن الثامن الهجرى حتى كانت قد أرسيت دعائم دولة شىلامية فتية ، قىض لها أن تتسلم لواء الجهاد الإسلامى فى الأناضول فكان جهادها امتدادا لجهاد المسلمين فى صدر الإسلام والعهد الأموى فالعباسى - على يد الحمدانيين - فسلاجقة الروم ، لكن جهاد العثمانيين لم يقف عند حدود الأناضول بل تعداه إلى البلقان .

هوامش الفصل الثاني

(١) لا يقل عددها عن ست عشرة إمارة من أهمها : بنو قراسى وبنو صاروخان وبنو آيدين وبنو منتشا وبنو قرامان وبنو جاندار وبنو ذى لقادر . زار ابن بطوطه بعض هذه الامارات ووصفها وتحدث عن ملوكها انظر :

ابن بطوطه ، ابو عبد الله بن ابراهيم اللواتى ، رحلة ابن بطوطه ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٨٣ .
ولمزيد من التفاصيل ايضا انظر :
أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٢ ،
ص ١٣٧ - ١٥٢ .

(٢) جودت ، احمد جودت ، تاريخ جودت ، ترتيب جديد ، استانبول ، ١٣٠٢ ، ج ١ ،
ص ٢٨ .

Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, Ankara, 1972, C.I.S. 125 (٣)

Hulusi, Yavuz, Yemen'de Osmanli Hakimiyeti, Istanbul, 1984, S. 170-171 (٤)

Gibbons, Herbert Adams, The Doundations of Ottoman Empire, London, 1968, P. 52-53 (٥)

Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, Ankara, 1972, C.I.S. 110 (٦)

الفصل الثالث

الوثبة الإسلامية الأولى وانتكاستها

توالى سقوط مراكز بيزنطة ومدنها الحصينة في يد العثمانيين حتى لم يعد لها في الجانب الآسيوى سوى بعض القلاع الصغيرة ونصف مدينة القسطنطينية وشريط ساحلى على بحر إيجه ، أما الجانب الأوروبى فقد ظل العثمانيون يرونون إليه عبر الخليج دون أن يجدوا الجرأة الكافية لعبور هذا الخليج إلى الضفة الأوروبية . ثم واتتهم الفرصة حين بعث امبراطور بيزنطة مستنجدا بأورحان ضد مناوئته وعلى رأسهم ملك الصرب .

عبر الجيش العثمانى إلى البلقان متلمسا مواضع الضعف فيه ، مستكشفا مراكزه الاستراتيجية . فى الواقع لم يستفد الامبراطور كثيرا من النجدة العثمانية فقد لقي عدوه الصربى حتفه وهو فى الطريق إليه بينما كانت فائدة العثمانيين عظيمة فقد استولوا فى عودتهم إلى الأناضول على شبه جزيرة كليبولى (٧٥٧ هـ) التى كانت تشرف على مضيق الدردنيل وتمثل رأس جسر إلى البلقان ، وكانت تلك أولى خطوات العثمانيين إلى البلقان بل وأهمها إذ فتحت لهم الطريق إلى أوروبا فيما بعد بحيث توالى فتوحاتهم فيها وكانت على شكل وثبات ثلاث يمكن تقسيمها على النحو التالى :

- الأولى : قبل فتح القسطنطينية .
الثانية : فتح القسطنطينية وما تلاه من فتوح في البلقان .
الثالثة : الوصول إلى قلب أوروبا وفتح المجر .

العثمانيون في البلقان :

كانت الأوضاع السياسية في شبه جزيرة البلقان من العوامل المساعدة للعثمانيين على فتوحاتهم فيه، إذ كان من بين القوى السياسية الحاكمة آنذاك ما يعيش طور الاحتضار مثل بيزنطة أو تعيش في صراع مرير كالحال بين الصرب والبلغار أو كلاهما مع بيزنطة ، أو بين دول البلقان قاطبة والمجر التي كان ملكها لودفيج الكبير (١٣٤٢ - ١٣٨٢ م) يسعى جاهداً لنشر المذهب الكاثوليكي بالقوة فإذا أضفنا إلى كل هاته الصراعات صراعاً أكثر شمولاً وهو الصراع التقليدي بين الكنيستين الشرقية في القسطنطينية والغربية في روما أدركنا إلى أى مدى كان البلقان في أتون مستعر . بيد أن هذه الصراعات لم تكن لتحول دون تجمع هذه القوى المتناحرة لتكون جبهة واحدة كلما دعا داع الحرب ضد العثمانيين .

- تولى السلطان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢ هـ) الحكم والدولة العثمانية من أسباب القوة ما يمكنها من العبور إلى البلقان ، فوضع نصب عينيه تحقيق هدفين :
١ - الحصول على قواعد حصينة تُيسر الانطلاق إلى أوروبا .
٢ - إجهاد محاولة البيزنطيين لعقد تحالف صليبي ضده ونقل ميدان الحرب إلى البلقان .

وقد كان للسلطان مراد ما أراد حين استطاع فتح مدينة ادرنه عام ٧٦٣ هـ ذات الموقع الاستراتيجي الهام وأعقبها بفتح فيليبس التي على استقامتها وبذا يكون قد رسم خطاً يمنع وصول أى إمداد يصل من وسط أوروبا إلى بيزنطة التي استعجبت بالدول الأوروبية فأنجذتها بجيش جرار يضم الصرب والبولغار والمجر وروما ، والتقى الجمعان في موقعة عُرفت في المصادر العثمانية بـ « صرب صنديغى » (٧٦٦ هـ) وصفها المورخ الانجليزي بقوله :

« هزمت الجيوش العثمانية في البداية وبات المنتصرون ليلتهم يتبادلون الانخاب

ابتهاجاً بالنصر وإذا بالجند العثمانيين يبرزون لهم من بين الأشجار الكثيفة مهللين مكبرين وأعملوا فيهم الطعان حتى فرقوا جمعهم»^(١) .

بعد ذلك نقل العثمانيون حاضرة بلادهم إلى أدرنه ، وتوالت عليهم السفارات والوفود الأوروبية عارضة الصداقة وعدم الاعتداء ودفع الجزية ، وكلما نقض الجانب المسيحي وعدا قطعه على نفسه في هذه الاتفاقات حاربته العثمانيون ، وكانت كل حرب من هذه الحروب تعنى مزيدا من التوسع الإسلامى فى البلقان حتى وصل العثمانيون إلى صوفيا عاصمة البولغار وحاصروها وسقطت في أيديهم بعد ثلاث سنوات ، وتحالفت الجيوش الأوربية ضد الجيش العثماني ، لكن النصر كان حليف العثمانيين في وادي « قوص اووه » (٧٩٢ هـ) في المعركة التي عرفت بنفس الاسم والتي انتهت باستشهاد السلطان مراد الأول .

حين تولى السلطان بايزيد الأول (٧٩٢ - ٨٠٥ هـ) ، كانت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جانبه ولذا بات فتحها من أهداف السلطان بايزيد ، بيد أن الإمارات التركية في الأناضول لم تنفك عن إثارة القلاقل والاعتداء على الأراضي العثمانية مما كان يضطره إلى حربها وهو في حرج أمام جنده من قتال المسلمين^(٢) بيد أن هذه الحروب لم تمنع بايزيد من ملاقاته الصليبيين في أكثر من موقعة في البلقان وظل في حركة دائبة بين الجانبين ، لذا عرف بالصاعقة .

حاصر بايزيد مدينة القسطنطينية مرتين ولم يتمكن من فتحها :

في الأولى جاءته الأنباء بتحالف الصليبيين واقترابهم منه مما جعله يفك الحصار ويكتفى بإبرام صلح مع الإمبراطور البيزنطي بشرط مضاعفة الجزية وبناء مسجد ومحكمة شرعية في المدينة ، ثم استدار ليلتقى بالجموع الصليبية في موقعة نيكوبولى (٨٩٨ هـ) التي انتصر فيها عليهم ، وكسر شوكة المجر وكان هذا الانتصار دافعاً لأن يبعث إلى الخليفة العباسي في القاهرة طالبا منه الإناعام بلقب سلطان فأنعم عليه بلقب « سلطان الروم والعرب »^(٣) .

وفي الثانية شدد بايزيد الحصار على المدينة ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الفتح المين ، لاسيما وأن جيوش أوروبا مازالت تعلق جروح هزيمة

نيكوبولى ، بيد أن نذر الخطر بدأت تلوح من الشرق فى هذه المرة ، بما يصيب الفتوحات الإسلامية بأولى الانتكاسات ويصيب الدولة العثمانية ذاتها فى مقتل .

لقد طارت الأنباء إلى بايزيد باحتلال علاء الدين القرامانى مدينة أنقره ثم اقتراب تيمورلنك قائد الموجة المغولية الثالثة الذى كان قد اجتاح العراقين وتوجه الشرق قاصدا الهند لكن اتصالاته مع الجنويين والقشتاليين ودعوتهم له إلى الأناضول شجعتة على أن يلوى عنان جواده إلى العثمانيين^(٤) ولقى تيمورلنك كل مساعدة من الأمراء التركان حتى وصل إلى أنقره حيث التقى بجيش بايزيد الذى فك حصاره عن القسطنطينية حديثا فكان النصر حليف تيمورلنك فى (٨٠٥ هـ) .

ضربة تيورلنك للعثمانيين ونتائجها :

كانت هزيمة تيمورلنك للعثمانيين قاسية لكنها لم تكن قاتلة ، إذ لم يكن أقسى على دولة من أن يقع قائدها أسيراً ويموت فى الأسر ويصبح أبنائه الأربعة حكام أقاليم من قبل الغازى المغولى وتعود كل الأراضى التى فتحها العثمانيون ورووها بدمائهم إلى أصحابها الأول سواء كانوا مسلمين من الأمراء التركان أو مسيحيين من البلقان . ورغم كل ذلك كان لغزوة تيمورلنك هذه من الآثار الإيجابية ما لا ينكره المؤرخون ومن أهم هذه الآثار :

١ - الإسراع بتتريك الأناضول وأسلمته بموجات الهجرة المتعاقبة من المسلمين الفارين أمام جحافل المغول القادمة من الشرق ، بيد أننا نود الإشارة هنا إلى أن هذه الهجرات لم تكن خيرا كل الخير على الأناضول ومن فيه ، بل كانت تضم ممثلى الارستقراطية الإيرانية وزعامات الطرق الصوفية المنحرفة^(٥) ممن كانوا يؤمنون بتفوق العنصر الفارسى وبأنهم ورثة السلاجقة الشرعيون فى الأناضول ، مما جعلهم مصدرا للقلق والفتن بل إنهم نقلوا الفتن إلى غرب الأناضول ثم البلقان عند فرارهم أمام تيمورلنك ولجؤهم إلى الغرب .

٢ - قدم تيمورلنك خدمة للعثمانيين من حيث لا يدري باستيلائه على ميناء أزمير الذى كان فى يد البيزنطيين وامتنع على العثمانيين .

استعادة الدولة وحدتها ومواجهتها للفتن :

انقشعت غمامة تيمورلنك عن الأناضول فجأة كما جاءت ، لكن بعد مضي عشرة سنوات باتت الدولة العثمانية خلالها مقطعة الأوصال ، ورغم ذلك لم يمض طويل وقت حتى استعادت الدولة نشاطها وكان ذلك على يد السلطان محمد جلبي الذي تمكن من التغلب على إخوته الأربعة الطامعين في العرش ، وتمكن من استعادة ما فقدته الدولة العثمانية أثناء غزو تيمور ولم يكد يسترد أنفاسه حتى أطلت فتنة بدر الدين برأسها وكادت أن تعصف بالوجود العثماني مرة أخرى .

فتنة بدر الدين : يهودية ، علوية ، صليبية :

تعد هذه الفتنة أولى فتن الباطنية التي يواجهها العثمانيون ولتتابع أحداثها من خلال ما كتبه المؤرخ التركي إسماعيل حقى أوزون جارشيلي :

« ادعى الشيخ بدر الدين أنه من صلب السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث (٦٩٨ - ٧٠١ هـ) ، وكان جده ملازماً في الجيش العثماني أثناء فتوحات البلقان حيث تزوج ابنة من ابنة قائد رومي كان حاكماً لقلعة ديموطيقا (في اليونان حالياً) ، وجاء بدر الدين ثمرة لهذا الزواج وولد في قلعة صامونا بالبلقان وإليها نسب . حصل بدر الدين تعليمه لأولى في مدينة بورصة ثم ارتحل إلى قونيه ومنها إلى الشام فالقاهرة حيث تعلم التصوف على يد الشيخ حسين الأخلاطي الذي أمره بالرحلة إلى تبريز ، لما وجد فيه من حسن استعداد وقابلية للتعلم وظل بدر الدين في تبريز فترة طويلة عاد بعدها إلى القاهرة ولم يلبث أن غادرها لوفاة شيخه .

طفق بدر الدين عائداً إلى الأناضول وفي عودته بدأ يطوف معاقل التركمان العلويين في قرمان وكرميان وآيدين وتيره ذاعياً لمذهبه الجديد .. - (٦)

كان مذهب بدر الدين امتداداً للمزدكية التي شاعت في إيران ابان القرن الخامس الميلادي وظلت سبباً لكثير من الفتن طوال العصر الإسلامي حتى العهد الأموي (٧) . أما أساس هذا المذهب فهو الشيوع بين الناس أي شيوع كل شيء أو أي شيء حتى الأديان يجب أن تكون ملكاً للجميع ولا فرق عنده بين تعبد يهودي أو صلاة مسلم بل وصل به الأمر إلى حد الدعوة بأن يؤدي أتباع أي دين

مناسك الدين الآخر . وهكذا أراد بدر الدين بآرائه الضالة هذه أن يجذب إليه القلوب بدعوى أنه ينشد المساواة بين الناس جميعاً على اختلاف أديانهم .

على أية حال ظل بدر الدين يدعو الناس سرّاً ويجمعهم حوله واستغل النزاع القائم بين محمد جليى وأخوته على العرش فانتقل إلى أدرنه حيث الأمير موسى جليى فتقرب بدر الدين إلى الأمير الذى أولاه اهتمامه وعينه قاضياً مما أدى إلى تدعيم مركزه وانتشار نفوذه بين الناس ، فبدأ يتطلع إلى الحكم العثمانى . بيد أن انتصار محمد جليى على أخوته - كما أسلفنا - ودخوله أدرنه عصفاً بآمال بدر الدين فزاد من نشاطه ووصل أمره إلى السلطان الذى عاقبه بنفيه إلى ازنيق وتحديد اقامته فيها .

لكن هذا الإجراء لم يقلل من نشاط بدر الدين إذ كان على صلة بمن يدعى بوركلوجه مصطفى (من أصل بلقانى) وآخر يهودى فى الأفلاق يدعى طورلاق كمال وكان الأخير يدعو لمذهب يتفق ومذهب بدر الدين . بعد أن اطمأن الجميع إلى كثرة الاتباع استأذن بدر الدين فى الذهاب إلى الحج فأذن له ، وخرج من ازنيق إلى مقدونيا التى وصلها سرا ، وجمع أتباعه وبدأ يوجه ضرباته إلى القوات الحكومية ، واستطاع تحقيق بعض الانتصارات فى البداية لكن لم يطل به الانتصار إذ سرعان ما قبض عليه واستصدر السلطان فتوى بشنقه وبدأ أحمدت فتنته (٨) ..

يتضح بعد هذا العرض الموجز لفتنة بدر الدين أن ثمة صلة وثيقة بين غلاة العلوية وغلاة الصوفية واليهودية والصلبية ، وأن ثمة دوراً لتبريز فى تصدير الفتن ، وأن الجميع اتفقوا - رغم بغد البون بينهم - عند هدف القضاء على الدولة العثمانية .

وهكذا قوبلت الوثبة الإسلامية الأولى بمعوقين :

أحدهما مغولى يحلم بتكوين امبراطورية من العناصر الفارسية فاجتاح الأراضى العثمانية وقوض دولتها بينما كانت تدق أبواب القسطنطينية ، والثانى تمثل فى فتنة علوية ذات عناصر يهودية وصلبية كادت أن تعصف بالدولة العثمانية وهى لم تقم بعد من كبوتها .

هوامش الفصل الثالث

- (١) Creasy, Edward S., History of Ottoman Turks, Beyrut, 1968, P.23
- (٢) Show, Stanford, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge Press, 1976, V.I, P.31.
- (٣) Donismend, Ismail Hamdi, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Istanbul, 1971, C.I, S. 104.
- (٤) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، سبق ذكره ، ص ٣٧ .
- (٥) Show, Ibid, P. 33
- (٦) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e. S. 362
- (٧) حسين مجيب المصرى ، من ادب الفرس والترك ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ ، ص ٤٢٢ .
- (٨) Uzunçarsili, Ismail Kakki, a.g.e., s. 361-363

الفصل الرابع

الوثبة الإسلامية الثانية ومحاولة إجهاضها

عادت عجلة الفتوحات الإسلامية في البلقان سيرتها الأولى في عهد السلطان مراد الثاني (٨٢٤ - ٨٥٥ هـ) الذي شملت فتوحاته كل أجزاء البلقان تقريبا على شكل مروحة : مقدونيا والمورة والآفلاق وبلغاريا والصرب والمجر والبانيا . ولم تقف القوى الصليبية موقف المتفرج أمام فتوحات العثمانيين بل تحالفت أكثر من مرة وكان أكثرها حشدا في فارنه إذ واجه العثمانيون كل جيوش أوروبا محتشدة وكان النصر حليفهم أيضا ثم جاءت المعركة الأخيرة في وادي (قوص اووه) ورغم انتصار مراد الثاني أيضا في ٨٥٢ ، لم يستطع الجيش العثماني أن يكسر من شوكة القائد المجرى العنيد هونيادي ولا أن يحد من غرور اسكندر بك حاكم البانيا فظلت هاتان القوتان ردحا من الزمان شوكة في حلق العثمانيين في البلقان بيد أن المعارك التي خاضها السلطان مراد الثاني حققت عدة أهداف :

- ١ - أعادت للجيش العثماني رهبته في أوروبا : فسارع من لم يخضع للسيادة العثمانية إلى عقد اتفاق سلام معها مثل المجر وألبانيا .
- ٢ - كشفت شدة الخلافات المذهبية بين الدول الأوروبية ، إذ لم تقدم شعوب البلقان المساعدات اللازمة للجيش الصليبي المقاتل ضد العثمانيين وخاصة في جنوب البلقان .
- ٣ - أعادت القسطنطينية إلى عزلتها عن أوروبا .

وكان تحقيق هذه الغايات من أهم العوامل التي ساعدت محمد الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ) فيما بعد على فتح القسطنطينية .

فتح القسطنطينية وأثره في انتشار الإسلام :

تطلع المسلمون منذ فجر الإسلام إلى فتح هذه المدينة لما لموقعها الجغرافي من أهمية تجارية واستراتيجية ولما لمركزها الحضارى من مكان الصدارة في العالم المسيحى .

وقد روى عن الرسول (ﷺ) أحاديث تدل على أهميتها عند المسلمين منها قوله ﷺ : « لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش »^(١) ، وقد حاول المسلمون فتحها غير مرة ، وأستشهد تحت أسوارها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ، لكن المدينة امتنعت على المسلمين كما امتنعت على المسيحيين من أعداء البيزنطة أيضا ، فالطبيعة حبها بتحصينات طبيعية ؛ فهي تقع على مثلث هائل من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على بحر مرمرة وضلعه الأيمن على خليج القرن الذهبى وضلعه الأيسر هو الجانب المتصل بالقارة الأوروبية . ولم يأل البيزنطيون جهدا في بناء أسوار ضخمة تحيط بالمدينة من كل جانب ووصل بهم الأمر إلى إغلاق الخليج الذهبى بسلسلة حديدية ضخمة تصل الشاطئ بالشاطئ فإذا وضعنا في اعتبارنا استماتة أهلها في الدفاع عنها - خاصة بعد أن أدركوا أنه لا حليف لهم بين الدول الأوروبية - أدركنا إلى أى مدى كانت مهمة العثمانيين صعبة ومحفوفة بالمخاطر .

ولا يتسع المجال هنا لذكر الاستعدادات الحربية للحصار وقد استمرت ثلاث سنوات ، ولا لذكر أحداث الآلات الحربية التي جهز بها الفاتح جيشه ولا عبقرية الفاتح العسكرية فقد كتب الكثير في هذا الموضوع ، ولكن نود الإشارة إلى أن هناك عوامل كثيرة ساعدت العثمانيين على إنجاز هذه المهمة الصعبة منها ما هو متصل بأسباب دولية كالتى ذكرنا مثل إحجام الدول الأوروبية عن تدعيم موقف بيزنطة والعلاقات الطيبة بين الفاتح والبلاد الإسلامية كالمماليك في مصر والشام ، ومن العوامل ما هو متصل بالمدافعين عن القسطنطينية مثل استخدامهم لجنود مرتزقة من الألمان وغيرهم ممن كانوا معول هدم في الحصار بدلا من أن يكونوا أداة تدعيم .

أما أهم العوامل قاطبة فهو المحرك الإيماني لدى زمرة الفاتحين وإخلاصهم
لمبدأ الجهاد في سبيل الله ، ومهما تحدثنا عن هذا العامل ، فلن نفيه حقه ، بيد أن
أمير الشعراء أحمد شوقي اختزله في هذين البيتين :

قد جاءها الفاتح في عصبية
من الأسود الركع السجد
رمى بهم بنيانها مثلما
يصطدم الجلمد بالجلمد^(٢)

وكان دور القائد تعبئة هذا المحرك العقائدي وإشعال شرارته ، ولذا ضرب
الفاتح - كدأب السلاطين العثمانيين الفاتحين جميعا - بخيمته وسط جنوده وما
انفك يطوف بهم ويذكرهم بما روى من الأحاديث الشريفة التي تبشر بالفتح ،
وعن لسانه يقول الشاعر محمد جلال (١٢٩٣ - ١٣٣١ هـ) في ملحمة فتح
استانبول :

سيروا أيها البواسل الغزاة
فهذا هو أمر الله
مزقوا العدا إرباً فإن
من قدر لى هذا الفتح هو الله^(٣)

وللفاتح نفسه شعر يفيض إيماناً وعزماً على الجهاد في سبيل الله :

« لا أضمر سوى الامثال لداعى الجهاد والفلاح

ولا غيرة عندى سوى غيرتى على الإسلام

إن مهمة الجنده رجال الله تنحصر في خدمة الحق (سبحانه)

إننى عازم على قهر الكفار وإبادتهم^(٤) »

ونعرض مقتطفات من رسالتى البشرى اللتين بعث بهما الفاتح ليشر
شريف مكة المكرمة والسلطان المملوكى في مصر والشام بفتح القسطنطينية لما في
هذه المقتطفات من دلالة على أن هذا الفتح الإسلامى المبين إنما تحقق نتيجة لإيمان

المهاجمين بأن الله مؤيدهم بنصر من عنده ، فيقول محمد الفاتح في رسالة إلى شريف مكة :

« فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل المجاهدين عن (من) البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم (جمع) كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المدرسة من المنجنيق فدخلوا في نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثلاثاء (الثالث) والعشرين من شهر جمادى الأولى»^(٥) ثم يطلب دعاء العلماء وقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة وكل الحجيج في عرفات . ويصف في رسالته لسلطان المماليك في مصر كيف كان حال جنوده الموحدين في ساعة الوغى فيقول :

« وانتهينا إلى ما أشار إليه من مسيرة على القسطنطينية العظمى بعساكره الإسلامية وجنوده المحمدية ، فكانوا لها أصفادا وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقفت صابرة فكانت أوتادا .. وهبت نسيمات النصر على جيوشه فقبل يا خيل الله اركبي ويايد النصر اكتبي .. وقام الحرب على ساق وأضحى كل من الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت سيوفهم الأغمد وأقسمن أنها لا تفر إلا في الرؤوس والأسنة أسرت وآلت أنها لا تروى ظمأها إلا من دماء النفوس والسهام قد التزمت أنها لا تلج كنانينها إلا من النحور ولا تغوص عن حنايا القسي بخبايا الأضلع إلا لترفعها .. والدروع قد لزمت الأبطال قائمة لا نفارق الأعداء حتى تتلى سورة الفتح المين»^(٦) ثم يدعو لمن يوجه إليه الرسالة بقوله :

« وفزتم بقوله عليه الصلاة والسلام : (ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار)^(٧) وقوله ﷺ : (إن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)^(٨) .

على أية حال دخل المسلمون القسطنطينية مهللين مكبرين وأمر الفاتح جنوده بالكف عن السلب والنهب ، ونودي للصلاة وتحولت معظم الكنائس إلى مساجد وعلى رأسها كنيسة آيا صوفيا الشهيرة ، ولكي يؤمن الفاتح هذا الانتصار كان عليه أن يتبعه ببعض الجهود الحربية في البلقان : فتوجه إلى شبه جزيرة المورة وأرغمها على دفع الجزية ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م ، وتوجه إلى الصرب والإفلاق فضمهما نهائيا إلى الدولة العثمانية ، وحارب المجر وحاصر مدينة بلغراد

التابعة لهم آنذاك - وأجير البنادقة والألبان على توقيع اتفاقيات عدم اعتداء ، ثم استولى على بعض الجزر القريبة من السواحل العثمانية حتى لا تكون قاعدة للهجوم البحرى ومن أهمها جزيرة ديللى فى ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م .

كان لهذا الفتح من الآثار العسكرية والسياسية والاقتصادية ما جعل المؤرخين يعلّونه نقطة تحول فى مجرى تاريخ العالم ووضع مؤرخو أوروبا حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والعصور الحديثة ، وما يعنينا هنا هو أثره فى انتشار الإسلام .

فى الحقيقة أن الفتح العسكرى - فى حد ذاته - لا يمكن أن يؤت ثماره إلا إذا أعقبته سياسة حكيمة تقوم على الترغيب لا التهيب وهذا ما فعله محمد الفاتح ؛ فقد أعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك وضمان حقوق الملكية واستدعى القساوسة وأمرهم بانتخاب رئيس لهم يتولى شئونهم الدينية فانتخبوا أحد القساوسة الفارين من ظلم الأباطرة وكان مختبئاً فى إحدى بقاع البلقان فاستحضره لهم^(٩) ، وكان لهذه السياسة أثرها فى عودة من هجر المدينة منذ عهد الأباطرة وعاد معظمهم ليعلم إسلامه .

وشهدت السنوات التالية للفتح عمليات إشهار إسلام جماعية تحدث لأول مرة فى العهد العثمانى ، حين جاء « أهالى البوسنة إلى محمد الفاتح ليعلموا إسلامهم ورغبتهم فى العمل بخدمة الدولة ، فسر السلطان بذلك وألحقهم بخدمة الجيش ومن الجدير بالذكر أنهم ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية حتى النهاية »^(١٠) .

وترسم الفاتح خطى أسلافه فى عملية التهجير والتوطين المنظم فأرسل إلى ولاته بالأناضول يدعوهم لتهجير من يرغب من المسلمين إلى استانبول وفرض الهجرة - بصفة خاصة - على الصناع والحرفيين^(١١) ، ولاشك أن سياسة التهجير هذه قد حققت عدة أهداف من أهمها :

- ١ - تطعيم الأمصار المفتوحة بالعناصر الإسلامية .
- ٢ - وتخفيف كثافة العنصر المسيحى فيها .
- ٣ - القضاء على العصبية القبلية والإقليمية .

تحالف دولة الشاة البيضاء مع البنادقة والصليبيين :

لاشك أن سيادة الدولة العثمانية على الأناضول جعلها تتحكم في معبر تجارى هام تنتقل من خلاله البضائع القادمة من الصين وفارس إلى أوروبا ، وكان البنادقة والجنويون هم الذين يقومون بدور المتسلم لهذه البضائع لتوزيعها في أوروبا ، ورغم تحول جزء كبير من التجارة عن هذا الطريق بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يفقد أهمية لدى الفرس والبنادقة لقربه من بلاد البلقان وأوروبا الوسطى ولقلة تكاليفه نسبيا .

ولنا عود للحديث عن هذا الطريق وأثره في الصراعات الإقليمية في المنطقة ، ويكفى الإشارة هنا إلى أن استيلاء الدولة العثمانية على القسطنطينية وسيطرتها على المضائق ومعظم سواحل البلقان وجزره الهامة وإعلان حكام القرم الطاعة والولاء للدولة العثمانية . كل ذلك حرم البنادقة والجنويين مما كانوا يحصلون من ضرائب ورسوم على البضائع الفارسية فجئن جنونهم وراحوا يبحثون عن حليف لهم ضد الدولة العثمانية ووجدوا ضالهم في حاكم دولة الشاة البيضاء^(١٢) الواقعة في شرق الدولة وإمارة القرامانيين في الجنوب الشرقى وكلاهما أصابه الضر أيضا إذ كانا يتحكمان في ممرات هذه القوافل .

نما إلى علم محمد الفاتح اتفاق أوزون حسن حاكم دولة الشاة البيضاء مع الصليبيين فتوجه إلى قتاله وبالفعل التقى به في موقعة (أوتلوق بلى) في ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م. وهزمه وكسر شوكتهم لكن المؤامرة كانت تستهدف جر الجيش العثماني إلى أقصى الشرق لتنقض الأساطيل الأوزونية على السواحل الغربية من الأناضول وبالفعل تشكل أسطول كبير من البنادقة والنابوليين والآراجون ، والقبارصة وفرسان يوحنا في رودس واتفقوا مع القرامانيين الذين ساعدوهم من البر فأمطروا سواحل أنطاكية وأزمير والروميلي بالقنابل ثم قاموا بعملية إنزال بين أنطاكية وأزمير واحتلوا بعض القلاع وسلموا البعض الآخر للقرامانيين^(١٣) . ولم يستفد المتحالفون شيئا وكان المستفيد هو محمد الفاتح الذى استطاع في عودته القضاء على آخر بقعة مسيحية في آسيا الصغرى وهى مملكة طرابزون المجاورة لدولة الشاة البيضاء ثم تفرغ للقضاء على القرامانيين وحلفائهم الصليبيين .

توفى السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦ هـ عن دولة قوية مرهوبة الجانب من العالم المسيحي ومؤهلة لتسليم مقام الزعامة في العالم الإسلامي وهامهم بقايا مسلمي الأندلس يستنجدون بالسلطان الفاتح لإنقاذهم^(١٤) ويبدو أن دولة المماليك في مصر والشام وهي صاحبة الحق في الزعامة الإسلامية حتى ذلك الوقت - بدأت تتململ قلقا على مكانتها في العالم الإسلامي وقد ظهرت بوادر حقدتها على الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨ هـ) خلف محمد الفاتح .

هوامش الفصل الرابع

- (١) أحمد بن حنبل ، المسند : ٤ ، ٣٣٥ .
والمزيد منها رواه نفس المصدر ، ٤ ، ١٩٣ والترمذى : فتن ، ٤٥ ، ٥٨ .
- (٢) الشوقيات ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
- (٣) محمد جلال ، فاتح سلطان محمد ثاني ، استانبول ، ١٠٣٨ هـ ، ص ٢٤ .
- (٤) Hulusî, Yavuz, a.g.e., S. 165
- (٥) فريدون ، منشآت سلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع ، ج ١ ص ٢٣٩ .
- (٦) نفس المرجع ص ٢٤٢ .
- (٧) صحيح البخارى : جهاد ، ١٦ وقيل « من اغبرت قدماه ... » ، نفسه : جمعة ١٧ .
- (٨) « إن في الجنة مائة درجة ... » رواه البخارى : جهاده وتوحيد ، ٢٢ والنسائى : جهاد ، ٤٧ ، ٤٨ وأحمد بن حنبل : ٥ ، ٢٥٢ .
- (٩) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 153
- (١٠) نفس المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٨٤ / ٨٥
- (١١) المرجع السابق ص ١٥٤ .
- (١٢) دولة الشاة البيضاء ، عشيرة تركانية اقامت دولة فيما بين آمد والموصل وحكمت من ٦٠٨ إلى ٩٦٤ هـ (للمزيد انظر : أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ٨٢٥ .
- (١٣) Danismend, Ismail Hamdi, a.g.e., C.I, S. 328
- (١٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ٩٠٢ .

الفصل الخامس جذور الصراع الصفوى العثمانى

بدأ العثمانيون ينجون ثمار انتصاراتهم العسكرية والسياسية تجاه الدول الأوربية وقد ظهرت بواكير هذه الثمار فى عهد بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ - ٩١٨ هـ) ويعبر عن هذا المعنى المستشرق الانجليزى تشارلز إليوت بقوله :

« لقد تغيرت نظرة الأوربيين إلى الأتراك فلم يعودوا يرون فيهم البرابرة الأجلاف غير المتفاهمين ، بل أصبحوا ينظرون إليهم نظرة احترام ويدعونهم إلى أراضيهم ويرحبون بالاتفاق معهم خاصة بعد أن وجدوا عندهم من القيم الإنسانية والحضارية ما يماثل تلك التى كانت عند الإغريق والسلاف والألبانيين والرومان ، بل تمايز الأتراك على هؤلاء بالقوة والنشاط ووحدة الصف ، أضف إلى ذلك تواضع السلاطين »^(١) .

تميز عهد بايزيد الثانى ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا لكن جنوح العثمانيين إلى السلم كان مرتبطا بالتزام الطرف الآخر لذا لم تكن هذه الاتفاقيات تمنعهم من القيام بتأديب البنادقة على سواحل البلقان والاستيلاء منهم على جزر : ليبانت ومودون ونافارين فى البحر المتوسط وميناء رودتسو على بحر الأدرياتيك ، وأدرك العثمانيون أهمية الأسطول فشرعوا يبنون قوتهم البحرية منذ ذلك العصر^(٢) وقد دفعهم إلى هذا الاهتمام سببان رئيسيان :

- ١ - ظهور أهمية الأسطول سنتي في المعارك البرية وقد بدا ذلك واضحاً في حربهم مع المماليك (٨٩٠ - ٨٩٥ هـ) .
- ٢ - تسرب الأسطول البرتغالي إلى مياه البحر الأحمر والخليج العربي وعجز أسطول المماليك عن الوقوف في وجهه .

في الوقت الذي بدأت فيه العلاقات السلمية مع دول أوروبا ، بدأت العلاقات العدائية مع دول العالم الإسلامي وربما يبدو ذلك غريباً لأول وهلة ، لكن إذا بحثنا في الظروف والملاسات التي أحاطت بعلاقات الدولة العثمانية بجيرانها المسلمين لوجدنا أن العثمانيين كانوا مدفوعين حتماً للاصطدام بالدولة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت ، وهي دولة المماليك في مصر والشام ثم بالدولة الإسلامية الناشئة في إيران وهي دولة الصفويين .

إن تاريخ العلاقات العثمانية المملوكية قديم قدم قيام الدولة العثمانية فلم يكن العثمانيون بمنزلة غزل عن العالم الإسلامي كما ذكرنا من قبل بل كانوا على علاقات وطيدة بالمماليك بصفة خاصة ورغم تحسن هذه العلاقات بينهما وتبادل الرسائل الطيبة ورغم التعاون الطيب بين الجانبين في مواجهة البرتغاليين حين لبي العثمانيون استنجد المماليك بهم فأنفذوا إليهم الخشب والمعدات اللازمة لبناء السفن^(٣) . رغم كل ذلك كان التوتر يسود هذه العلاقات أحياناً بسبب إمارة بنى ذى لقادر (٧٤٠ ٩٢٨ هـ) وهي العازلة بين الدولتين ، إذ كانت تحتل خطاً منعنياً يفصل بين وسط الأناضول وشمال الشام^(٤) ، وكانت هذه الإمارة تستمد قدرتها على البقاء من قدرتها على مماشة أحد الطرفين ، مما لا يخلو من إثارة الفتن بينهما واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن قضى السلطان سليمان على هذه الإمارة في ٩٢٨ هـ .

زادت العلاقات توتراً في عهد السلطان بايزيد الثاني مما أدى إلى أول صدام فعلي بين الدولتين الإسلاميتين العظميين - آنذاك - وكان لهذا الصدام سبب مباشر هو : استقبال المماليك للأمير جم أخى السلطان بايزيد ومنازعه على العرش العثماني وإكرام وفادته وعدم تسليمه للسلطان حين طلب ذلك .

وآخر غير مباشر وهو :

خوف المالك من أن تتبوأ الدولة العثمانية مكانتهم في العالم الإسلامي ،
خاصة بعد فتح القسطنطينية واستنجد مسلمى الأندلس بمحمد الفاتح .

وقد زادت الأمور توترا في العالم الإسلامي بظهور الدولة الصفوية في إيران ،
وتطلع هذه الدولة إلى حكم العالم الإسلامي ونشر المذهب الشيعي بالقوة ، ولكن
كيف قامت هذه الدولة ؟ وما هي الدوافع الكامنة وراء تدخلها في شئون الدول
الإسلامية ؟ وما هي الأسباب التي دعته إلى التطلع لزعامة العالم الإسلام ؟
وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نلم بهذه الأمور :

- ١ - الأسس التي قامت عليها الدولة الصفوية .
- ٢ - المصالح الاقتصادية الإيرانية في الأناضول .
- ٣ - استغلال العداء المذهبي لإثارة الفتن .

١ - الأسس التي قامت عليها الدولة الصفوية :

استطاع أحد زعماء الشيعة الاثني عشرية في أردبيل ويدعى صفى الدين
الأردبيلي أن يجمع حوله رهطا من العشائر التركمانية حديثة العهد بالإسلام ،
فتحلقوا حوله وكثر عددهم بمرور الأيام لاسيما بعد أن ادعى أن نسبه يصل
إلى الإمام موسى الكاظم من نسل الحسين (رضى الله عنه) ، واستمر أبناؤه
وحفدته من بعده في توثيق علاقتهم بالقبائل والأتباع واضطر حاكم شيروان لطرد
الجنيد - حفيد صفى الدين الأردبيلي من البطن الثالث - لما ينشره بين الناس من
بدع فلجأ الجنيد إلى حسن الطويل حاكم دولة الشاة البيضاء وعاش هو وأبناؤه
وحفدته في كنف هذه الدولة بمدينة أردبيل ثم انتقلوا منها إلى جيلان حيث وجدوا
أتباعهم كثرة ، وكان من بين هؤلاء الأبناء إسماعيل (أصبح الشاه إسماعيل
٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) الذي بدأ يجمع أتباع جده مع العشائر التركمانية وشيعة إيران
واستطاع أن يحصل على مبايعة معظم هذه العشائر فأطاح باثنى عشر أميرا كانوا
يحكمون إيران^(٥) وشرع يخضع إيران كلها لسيادته .

قامت دعوة إسماعيل لأتباع جده على أساس مذهبي ، إذ بدأ يدبر أموره
على أساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مخصصة تربطها به

وشائج عقائدية متينة جعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن قائدها^(٦) ولجأ إلى القوة والعنف لإيجاد هذه الرابطة فجعل الشيعة مذهب دولته الرسمي وأعمل القتل في كل من يرفض اعتناق هذا المذهب ولم ينج من ذلك أحد؛ طفلاً كان أو امرأة وراح ضحية هذا العنف أكثر من مليون نفس^(٧) وفرض إسماعيل على جنوده لباساً يجمع بين لباس الزرادشت ولباس الفرق المبتدعة في أردبيل ، إذا تميز هذا اللباس بالقلنسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة ذؤابة سوداء وكان الملاحظة الزرادشت في عهد الساسانيين يتميزون باللباس الحمراء ، كذلك كان المبتدعون في أردبيل يرتدون القلنسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة ذؤابة^(٨) .

وهكذا أراد مؤسس الدولة الصفوية أن يحقق التجانس بين مختلف العناصر في الهضبة الإيرانية فدعا إلى مذهب مخالف لإجماع المسلمين ، ومناقض لمن حوله من الدول الإسلامية وأفلح في تعبئة جنوده روحياً فأخضع في سنوات قلائل - ولاية التيموريين ، ثم تجاوزت جيوشه خراسان فاستولى على أذربيجان وديار بكر ثم العراق وفارس وعلى هذا النحو قامت الدولة الصفوية على أنقاض الدويلات والإمارات الإسلامية في خراسان والعراقيين وتاخمت حدودها حدود الدولة العثمانية .

٢ - المصالح الاقتصادية الإيرانية في الأناضول :

يعد الأناضول من قديم الزمان معبراً تجارياً هاماً بين أوروبا وآسيا ، فكانت القوافل تمر عبر الوديان التي تتخلل نجيله العالية حتى تصل إلى شواطئ البحر المتوسط حيث تقوم أساطيل البنادقة والجنوئين بتوزيع البضائع على مختلف أنحاء أوربا ، وكانت هناك ثلاث طرق رئيسة للقوافل :

- ١ - الطريق الأول ويصل ما بين أوروبا وأرض الجزيرة العربية وكان يمتد قطرياً من اسكدار ثم يعبر خليج أزميت إلى أزيق و(اسكى شهر) ثم قونية فادنه ثم سوريا وأرض الجزيرة .
- ٢ - الطريق الثاني يصل ما بين أوروبا وإيران ويبدأ من اسكدار أيضاً إلى آماسيا مارابازميت وبولى ثم إلى ارزنجان أو أرضروم ومن ثم إلى الشرق .
- ٣ - يمكن أن يتفرع الطريق الثاني من آماسيا إلى طوقات وسيواس وملطية وديار بكر ليصل إلى الموصل ببغداد^(٩) .

فإذا عرفنا أن الحرير الإيراني كان يُنقل من تبريز إلى أوروبا عبر الطريقين الثاني والثالث بل كان بعضه يغزل في مغازل بورصة والباقي تتسلمه أوروبا في شكله الخام، وأن الدولة الصفوية قامت دولة داخلية لا شواطئ لها تطل على أوروبا وأن الدولة العثمانية قد قامت في الأناضول ، وكانت في يدها مقاليد التجارة العابرة من أوروبا إلى الشرق وبالعكس إذا عرفنا كل ذلك أدركنا الأهمية الاقتصادية للأناضول بالنسبة للصفويين وخاصة المراكز التجارية منه ولذا كانت البلاد التي عدناها آنفا هي أهم ما استهدفته الهجمات الإيرانية عبر تاريخ الحروب الصفوية العثمانية .

ولاشك أن حرص الشاه إسماعيل على أن يكون له منفذ لأوروبا هو الذى جعله يعرض على الفرنجة الاتفاق ضد المماليك ، بحيث يهجمون عليهم من جهة البحر بينما يهاجمهم هو - أى إسماعيل - من جهة البر^(١٠) . وكرر نفس المحاولة ضد العثمانيين ففى شوال من عام ٩٠٦ هـ بعث بسفير إلى البنادقة يعرض عليهم التحالف ضد بايزيد العثماني ونظر لعبور هذا السفير الأراضي السورية توترت العلاقات بين العثمانيين والمماليك^(١١) وإذا كانت هذه أهمية الأناضول بصفة عامة بالنسبة للصفويين فهناك أهمية خاصة لشرق الأناضول وجنوب شرقيه حيث توجد الأبواب الرئيسية لطرق القوافل : فى قونية وآماسيا وطوقات وديار وأرضروم وطرابزون وهناك أهم مناجم للمعادن الرئيسية كالفضة (بين طرابزون وأرضروم) والنحاس (قرب ديار بكر) . وهناك عدد لا بأس به من القبائل التركمانية الشيعية والواعدة بالتشيع . وكان من أهداف حملة الشاه إسماعيل على إمارة ذى القادر فى جنوب شرق الأناضول ، تفقد هذه القبائل وتبشيرها بالنصر القريب^(١٢) .

٣ - العداء المذهبي وإثارة الفتن :

يقول المثل التركى القديم « إنما تفتح القلعة من الداخل » وقد عرف الصفويون طريقهم إلى قلب الأناضول بنشر الدعاة يدعون للشيعه مذهباً وللشيخ حيدر - والد الشاه إسماعيل إماماً ، وكان كثير من أفراد العشائر التركمانية ، سواء من أتباع الطرق الصوفية المنحرفة أو الشيعة - يفلون إلى الشيخ حيدر فيلقنهم

مبادئ الإثنى عشرية ويدربهم على القتال ثم يعيدهم إلى الأناضول بعد أن يطمئن لولائهم منعماً على كل منهم لقب (خليفة) ، زاد هذا النشاط في عهد إسماعيل ، مما دعا السلطان بايزيد الثاني أن يحد من الرحلات الصوفية إلى أردبيل فكتب الشاه إسماعيل إليه يطلب السماح بعودة هذه الرحلات إلى ما كانت عليه وأجاب السلطان طلبه^(١٣) .

ورث الصفويون عن فرق الباطنية في إيران والعراق تراثاً يزخر بشتى أنواع التخريب والاغتيال وتدمير الفتن ، وكانت فتنة « شاه قولى » - وهى من كبريات الفتن في التاريخ العثماني - من تديرهم ويجدر بنا أن نتبع جذورها ونلم بتفاصيلها حتى نتعرف على دورهم في إعاقه المسيرة الإسلامية للعثمانيين .

كان هناك من يدعى حسن خليفة ، تظاهر بالزهد واعتكف هو وابنه في إحدى المغارات بجبل قريب من أنطاليا ، وطارت انباء زهده إلى السلطان بايزيد الثاني ، فبات يغدق عليه بالعطايا والهبات ورتب له راتباً سنوياً ، ولم يكن هذا الشيخ سوى واحد من دعاة الشيعة فكان يلقي زائريه تعاليم المذهب الشيعي ، وبعد وفاته واصل الابن نور خليفة نشاط أبيه وأطلق على نفسه (شاه قولى) أى عبد الشاه ولكن بعد أن افترض أمره بين الناس صاروا يلقبونه بـ (شيطان قولى) أى عبد الشيطان .

على أية حال ، حين اعتلى الشاه إسماعيل حكم إيران كان عدد مريدى هذا الشيخ من الكثرة بمكان فبدأ يدعو بالبيعة للشاه إسماعيل ووصل بدعوته إلى البلقان كما ثبت في محضر التحقيق الذى نعرض جزءاً منه فيما يلى لأهميته في التعرف على أسلوب هؤلاء الدعاة : « افتضح أمر عميل من عملاء نور خليفة في مدينة فيليب (بالبلقان) فأجرى معه أمير السنجق التحقيق وجاء فيه :

- كم كنتم حين اتصلتم بشاه قولى ؟
- كنا أربعة أشخاص ، ذهبنا إليه في شهر صفر الماضى فأعطى لكل منا عشرين ورقة دعوة لتوزيعها .
- أين ذهب الثلاثة الآخرون ؟
- ذهب صفر إلى سزر وإمام وعلى إلى سلايك وتاج الدين إلى شوج^(١٤) »

إلى هذا الحد بلغ نشاط الشيعة داخل الدولة العثمانية : توزيع ما عرفناه اليوم باسم (منشورات) والدعوة لمبايعة رئيس أجنبي والدعوة في مكان أريقت فيه دماء الأتراك المسلمين في سبيل فتحه ورفع لواء الإسلام فيه .

زاد نشاط الدعاة ومثيري الفتن في أواخر عهد السلطان بايزيد الذي كان قد بلغ من الكبر عتيا وترك شئون الحكم لوزرائه وأبنائه، وكان الأبناء في شغل شاغل بتنافسهم على العرش المرتقب مما أدى إلى اختلال الأمن بالبلاد، فزاد عدد الخلايا السرطانية بين القبائل، وبات نور على خليفة يترقب ساعة الصفر لتنفيذ ما كان يرتب له . وذات يوم رأى أتباعه قافلة أمير أنطاليا وهي تتجه صوب الشمال فظنوا أن السلطان قد وافته المنية وأن الأمير ذاهب لقتال اخوته فانقض نور خليفة وأتباعه على تلك القافلة وسلبوها ثم سار في عشرين ألف من المريدين والاتباع يدعو لنفسه باعتباره خليفة الشاه إسماعيل في الأناضول ^(١٥) سيقى فرقة صغيرة بقيادة (صوباشي) ظنا من الحكومة أن الأمر لا يعدو كونه جريمة فردية ، ورغم هزيمة هذه الفرقة لم يأبه أولو الأمر للفتنة فزادت جرأة نور على خليفة واستشرت فتنته : فبدأ يهاجم البلدة تلو الأخرى وكلما دخل بلدا وجد له اتباعا ، فزاد عدد قواته وبدأ يهزم القوات الحكومية المرسله إليه، ووصل إلى مشارف بورصه وحاصرها حتى أرسل قاضيا مستغيثا : « إذا لم تصل إلينا تعزيزات خلال يومين قضى الأمر » ^(١٦) ولكن قوات نور خليفة عدلت عن الحصار وانجھت إلى طوقات - إحدى محطات القوافل التجارية التي يستهدفها الصفويون - فاستولى عليها حيث قرأت الخطبة باسم الشاه إسماعيل ^(١٧) وعلى هذا المنوال ظلت قوات العصاة تستولى على مدينة اثر الأخرى وتقيم المذابح الجماعية إلى أن سّيرت إليها حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم على خادم باشا فالتقى بالعصاة قرب نهر جوبوك وفي هذه المعركة استشهد الصدر الأعظم ، ورغم ذلك استطاعت القوات الحكومية أن تفرق جمع أتباع نور خليفة بصعوبة ولكنها لم تقض على الفتنة نهائيا ، فقد فر رأسها إلى إيران ^(١٨) .

استنزفت هذه الفتنة دماء المسلمين وطاقتهم وإمكاناتهم زهاء سنتين (٩١٥ - ٩١٧ هـ) ، مما حدا بالأمير سليم الذي كان واليا على طرابزون في أقصى شرق الأناضول أن يحسم الأمر ويمسك مقاليد الأمور بيده ويطالب

والده السلطان بايزيد بالتنازل عن العرش ، فقد كان بحكم موقعه في شرق الأناضول - يراقب عن كثب ما يخطط له الصفويون ورأى تغلغل الخطر الشيعي بين أخوته الأمراء أنفسهم مما بات يهدد كيان الدولة ذاتها ، وربما كان ذلك هو السبب المباشر الذي حدا بالسلطان سليم (٩١٨ - ٩٢٦ هـ) أن يبدأ نشاطه العسكري بالشرق ، فكانت معركة جالديران (٩١٨ هـ) مع الصفويين أولى الحروب التي خاضها بعيداً عن دار الجهاد في أوروبا ، ولم تكن الأخيرة فقد قضى سنى حكمه في حروب على جبهة المشرق الإسلامي .

ولئن كان الخطر الشيعي هو السبب المباشر لاتجاه النشاط العسكري للدولة العثمانية إلى المشرق الإسلامي ، فهناك أسباب تتصل من قريب أو بعيد بهذا الخطر منها :

- ١ - تسرب الأسطول البرتغالي إلى مياه الخليج العربي وعدم قدرة الممالك على إيقاف تقدمه ، بل وتهديده للحرمين الشريفين .
- ٢ - ظهور إمكانية قيام تحالف بين القوى الإسلامية المعادية للدولة العثمانية والقوى الصليبية في الغرب .
- ٣ - تحرير السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا من الاستعمار الأوروبي .

مهما يكن من أمر فقد وصل خطر الزحف الشيعي إلى شرق الأناضول إلى الحد الذي لا يمكن السكوت عنه ، لاسيما بعد أن وصلت إلى السلطان سليم تقارير تقول : « إن المبتدعين من الصوفية والشيعة قد استفحل خطرهم وزاد عددهم وباتوا يمعنون في القرى سلبا ونهباً ولم يتورعوا عن قتل الرجال وسبي النساء وأتوا على الأخضر واليابس »^(١٩) .

يتضح مما تقدم أن الدولة الصفوية قامت على أساس خلاف مذهبي ارتضته لنفسها ، وخلقت عداءً مذهبياً بين المسلمين لم يكن نابعاً من اخلاص لهذا المذهب بقدر ما كان نابعا من مصالح اقتصادية وأطماع سياسية ولم يكن العداء المذهبي سوى ستار تخفت وراءه هذه الأطماع .

هوامش الفصل الخامس

- (١) Eliot, Charles, Turkey in Europe, London, 1965, P.54-55
- (٢) أرسل بايزيد إلى مجاهدى البحر الاتراك الذين كانوا يعملون في البحر المتوسط بأساطيل لهم صغيرة ومن هؤلاء الرئيس كمال فألحقه بخدمة أسطول الدولة وسيحدث ذلك بالنسبة للمجاهد الشهير خير الدين برباروس في عهد سليم الأول ،
- لمزيد من التفاصيل ، انظر :
Uzunçarsili a.g.e., C.II, S. 205
- (٣) عيد العزيز نوار سبق ذكره .
- (٤) في مرعش والستان وما حولهما ، وملاطية وخربوط وما حولهما ، لمزيد من التفاصيل انظر :
أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .
- (٥) لمزيد من التفاصيل انظر :
على الشافى ، المرجع السابق ، ٢ ص ١٥٥ .
وأحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٤٤ / ٥٤٥ .
- (٦) عيد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .
- (٧) Namik Kemal, Osmanli Tarihi, Nesr. Ulviye Ilgar, Istambul, 1976, C.III, s. 23
- (٨) Islam Ansoklopedisi, Kizilbas,
- (٩) نفس دائرة المعارف ، مادة الاناضول .
- (١٠) ابن اياس ، بدائع الدهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ .
- (١١) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., a.c., S. 195, d.3
- (١٢) نفس المرجع ، نفس الجزء ، ص ٢٢٨ .
- (١٣) فريدون ، منشآت السلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع ، ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
- (١٤) وثيقة رقم ٦٦٣٦ (ارشيف طوب قاي) ، نشرت بالمرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
- (١٥) Namik Kemal, a.g.e, C.II, S. 280
- (١٦) وثيقة رقم ٤٣٥١ طوب قاي ، عن
Uzunçarsili, a.g.e., CIII, S. 255
- (١٧) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 229
- (١٨) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
- (١٩) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، (وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قاي) .

الفصل السادس

بداية الحروب الصفوية العثمانية ونتائجها

كانت موقعة جالديران (٩٢٠ هـ) هى الشرارة الأولى لحروب طاحنة بين الصفويين والعثمانيين استمرت ما يربو على قرنين من الزمان أى طيلة حكم الأسرة الصفوية فى إيران ولم تنته بانتهاء الحكم الصفوى بل ظل أوارها مشتتلا زهاء قرن آخر من الزمان ، أى أن الحرب بين هاتين البلدين الإسلاميين استنفذت ثلاثة قرون من عمرهما .

ورغم ما كان يتخلل هذه الحروب من اتفاقيات ومعاهدات سلام ، لم يسد بينهما سلام حقيقى ، وظل الطرفان طيلة القرون الثلاثة يتربص كل منهما بالآخر متوجساً منه خيفة حتى أصبحت العلاقة بينهما علاقة (عداء تقليدى) .

ولا يعنينا هنا وصف هذه الحروب وتنوع أسبابها ونتائجها ، وما إلى ذلك من وقائع تاريخية طالما تناولها المؤرخون^(١) . وإنما يعنينا بالدرجة الأولى ، تبيان أثر كل جولة من هذه الحروب فى تعطيل مسيرة الفتوح الإسلامية فى أوروبا وكيف كانت كل منها سبباً فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا .

موقعة جالديران :

ما إن تولى السلطان سليم الأول الحكم حتى بدأ تعبئة قواته للحرب ضد الشاه إسماعيل الصفوى وكان للتعبئة المعنوية أهمية كبرى ، إذ أن إعلان مثل هذه الحرب لم يكن أمراً مقبولاً لدى الأتراك العثمانيين فكان معارضوها كثرة^(٢) .

انبرى علماء الدولة العثمانية للدفاع عن السنة وتوضيح منهاجها وكشف

أباطيل غلاة الشيعة ومروقهم عن الإسلام فكتب ابن كمال باشا (٨٧٣ - ٩٤١ هـ) رسالة صغيرة أورد فيها رأيه - مدعماً بأدلة من الكتاب والسنة ، وقرر أن التشيع مخالفة صريحة لجماعة المسلمين وأن قتال الشيعة إنما هو جهاد وحربهم غزوة^(٣) .

واجتمع السلطان سليم بقيادة جيشه ورجال دولته وخطب فيهم قائلاً : « إن العالم المسيحي ما انفك يتربص بنا ، وإن كان الآن مختبئاً فهو يراقبنا من ثقب الباب متحيناً الفرصة للانقضاض علينا ولا ندري أى خطر يحيق بنا لو انقسم الناس إلى مذاهب في هذه الفترة الحرجة .. من المؤسف أن تجمع القبائل التركية أموالها ومتاعها وتذهب بها حاجةً إلى هذا الملعون وكأنهم ذاهبون إلى مكة أو المدينة ، لقد أراق هذا الملعون دم أهل السنة واستحل أموالهم وسبوا نساءهم ومع ذلك تعتبر هذه القبائل مكانه كعبة بل وصل الأمر بهم لدرجة السجود كلّمَا ذكر اسمه^(٤) .

ولم يكن السلطان سليم مبالغاً فيما قال ، فإلى هذا الحد كانت الدولة الصفوية شوكة في ظهر العثمانيين وإلى هذا الحد أيضاً بلغ تأليه شيعة الأناضول لإمامهم الشاه إسماعيل ولذا كان من الضروري أن يقوم السلطان بحملة تطهير واسعة قبل أن يمضى إلى القتال حتى لا يطعن من الظاهر . واستصدر فتوى بوجوب قتال الشاه إسماعيل ، كدأب العثمانيين قبل الخروج إلى أى حرب ، وجمع جيشاً جواراً اتجه به إلى الشرق قاصداً إيران ، وفي الطريق تبادل الطرفان رسائل مفعمة بالحق والكراهية والسخرية ، ومن الطريف أن الجيش العثماني قطع صحارى أرزنجان وتوغل في الأراضي الإيرانية ومازال الشاه إسماعيل يكتب للسلطان سليم « يدعو للخروج إلى ميدان الرجال »^(٥) ويتهمه بالجن تارة ويذكره بما كان بين آبائهما من صداقة تارة أخرى وما كان بين كليهما من مودة أثناء إمارة سليم على طرابزون .

مهما يكن من أمر هذه الرسائل وما حملته من ألفاظ يندى لها الجبين فقد كانت خطة الشاه إسماعيل - وهى خطة الفرس طوال الحروب الإيرانية العثمانية - أن يأتي على الأخضر واليابس أمام الجيش العثماني ويستثيره ويحفزه على التوغل داخل الأراضي الإيرانية بينما يختفى هو بجيشه عن الأنظار، ولا يبرز من مكمنه

إلا وقد نال الجوع والإرهاق والسّامة من الجيش العثماني . وهذا ما حدث فعلا ولولا قلة من المؤن كانت تأتى إلى الجيش العثماني من ميناء طرابزون عبر الوديان والفيافي وعلى ظهر البغال والحمير لكان مآل الجيش العثماني إلى هلاك . وإذا كانت خطة (الأرض المحروقة) هذه لم تنجح كثيرا في قطع خطوط الإمداد والتموين عن الجيش العثماني فقد نجحت في إصابة جنوده بالقلق والتوتر ، وبث روح التذمر بينهم ضد قائدهم ؛ فقد استيقظ السلطان من نومه على صياح جنوده وهم يهدمون الخيام ويرشقون خيمته بالرصاص والسهم رافعين راية العصيان مطالبين بالعودة بعد أن يحسوا من لقاء العدو . وبخنة القائد استطاع السلطان أن يمسك بزمام الموقف ويخطب في جنوده مذكرا إياهم بأنهم إنما جاءوا « لقتال المرتدين عن الدين حتى يفيئوا إلى أمر الله فمن تخاذل وآثر العودة فهو في حكم المرتد أيضا »^(٦) ومضى السلطان سليم بجنوده قاصدا تبريز ، وأخيرا ظهر الشاه إسماعيل والتقى الجمعان في وادي يسمى جالديران في شمال شرق آذربيجان في ٢ رجب ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م . وهزم الجيش الصفوي هزيمة قاسية ولكن لم تكن قاضية إذ ولى الأدبار واختفى ثانية عن الأنظار .

دخل الجيش العثماني مدينة تبريز فسر بذلك أهلها واستقبلوه استقبال الفاتحين إذ كانت غالبيتهم من السنة الأحناف الذين تظاهروا بالتشيع خوفا من إرهاب الشاه إسماعيل فبدأوا يقيمون صلاة الجمعة في المساجد لأول مرة منذ تولى الشاه حكم إيران ، ومنع المسلمين من آدائها في المساجد كما سمعوا الدعاء للرسول عليه صلاة الله وسلامه وخلفائه الراشدين لأول مرة أيضا بعد طول غياب^(٧) .

نتائج موقعة جالديران :

ربما لم يحقق الجيش العثماني أهدافا مباشرة بعد انتصاره في جالديران ، إذ لم يضع هذا الانتصار نهاية حاسمة للحرب مع الصفويين ، لم يوقفهم عند حدهم ، ولم يضع حدا لنشاطهم العدائي ضد الدولة العثمانية ، ولكن السلطان سليم استولى في عودته على شمال العراق وبعث إلى بغداد ذو الفقار يعلن ولائه للعثمانيين .

وهاجم سليم الأول إمارة ذى القادر وقضى على علاء الدولة حاكمها ونصب واليا من قبله ، ثم عاد إلى استانبول ليعد العدة لقتال المماليك الذين اشم

رائحة الخيانة في سلوكهم أثناء حربه مع الشاه فرغم إعلان المماليك حيادهم حين دعاهم سليم للاتفاق معه ضد الشاه إسماعيل ، بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط الإمداد المتجهة إلى الجيش العثماني عبر الأراضي المملوكية في شمالي حلب .

والحقيقة لم تكن موقعة جالديران إلا حافزا على سرعة قيام السلطان سليم بفتح مصر والشام فقد كانت نفسه تتوق إلى ذلك للأسباب التالية :

١ - تأكيد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامي ولاسيما عند دخول الأراضي المقدسة في حوزتها .

٢ - حماية ظهر الجيش العثماني من ناحية الغرب إذا ما اضطرب لحرب الصفويين ، كذا تأمين خطوط الامداد والتموين عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط .

٣ - الإيقاع بالبرتغاليين في مياه البحر الأحمر لاسيما بعد أن استفحل خطرهم نتيجة عدم وجود جبهة إسلامية متماسكة ، بل سرى أنهم تسربوا إلى الخليج العربي بدعوة من الصفويين لضرب الدولة العثمانية من الجنوب .

الأهداف الإسلامية التي حققها العثمانيون بعد جالديران :

عرفنا أن موقعة (جالديران) كانت من الأسباب التي حدثت بالعثمانيين إلى قتال المماليك وكان انتصارهم في موقعة مرج دابق (٩٢٢ هـ) ثم الريدانية (٩٢٣ هـ) سببا في حكم العثمانيين مصر والشام ومن ثم الحجاز واليمن وأصبح السلطان سليم الأول خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين ، وتحمل مسئولية الدفاع عن المقدسات الإسلامية التي بات يهددها البرتغاليون ، فبنى بعض السفن في ترسانة السويس واستطاع إيقاف خطر البرتغاليين في البحر الأحمر ثم جاءت حملة خادم سنان باشا في عهد سلفه السلطان سليمان القانوني لتتولى تطهير البحر الأحمر تماما من السفن الأجنبية .

التحق بخدمة السلطان سليم أثناء وجوده في مصر أسرة من مجاهدي البحر الأتراك وهي أسرة أروج بك والذي تم على يده ويد أخيه خير الدين يرباروس (٨٨٨ - ٩٥٣ هـ) تطهير سواحل شمال أفريقيا من المستعمرات الإسبانية والإيطالية، وبذا حافظ شمال أفريقيا على إسلاميته وعروبته .

حققت الدولة العثمانية أهدافاً اقتصادية واستراتيجية على جانب كبير من الأهمية فقد زادت مواردها الاقتصادية ، واستفادت من الخبرات الفنية الموجودة في مصر والشام والحجاز وحصلت على قواعد عسكرية جديدة وخاصة المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حتى أضحت البحر المتوسط بحيرة عثمانية .

لاشك أن وصول الدولة العثمانية إلى هذه الأهداف لم يكن ليرضى الجانب الصفوى ، بل كان مبعثاً لحقده خاصة بعد سيادة العثمانيين على الطرق المؤدية للأراضي المقدسة من ناحية وعلى طرق التجارة إلى البلاد الأوروبية من ناحية أخرى ، وربما كان لإحكام العثمانيين سيطرتهم على طرق التجارة ومنافذها ، في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط من أشد الضربات التي تلقاها الصفويون ، ومما زاد الأمر سوءاً أن السلطان سليم بدأ يطبق حصاراً اقتصادياً على التجارة الإيرانية فأصدر مرسوماً يمنع الاتجار في البضائع الفارسية أو السماح بمرورها عبر البلاد وكان يصادر أى بضاعة يتم ضبطها كما يعاقب التاجر المخالف لهذا المرسوم^(٨) .

وهكذا بات حقد الصفويين على العثمانيين من الشدة بحيث يمنع الجانبين من الوصول إلى أية تسوية سلمية . بل إن الشاه إسماعيل لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط . وكان مستعداً لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطراً على العالم الإسلامى حينذاك ومع أن ملك هرموز - الجزيرة الصغيرة التي أضمرت اقتصادياتها بشدة لمجيء البرتغاليين - وضع نفسه تحت سيادة الشاه لعل الأخير ينقذه من سطوة البرتغاليين المريعة إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين في مقدمة أية تسوية .. فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت سيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الأحساء ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه وكانت النتيجة أن ساعدت سيادة الشاه هذه على تقوية تسلط البرتغالي على الخليج العربى^(٩) .

وهكذا كانت سياسة الشاه إسماعيل وظلت سياسة من ولى بعده من الشاهات .

هوامش الفصل السادس

- (١) انظر على سبيل المثال : بزاردین کلتی ، فتح القسطنطينية ، تعريب شكري محمود نديم ، بغداد ، ١٩٦٢ .
- (٢) Uzunçarsili, C.III, S. 259
- (٣) Banarlı, Nihad Sami, Resimli Türk Edebiyatı Tarihi, İstanbul, 1971. S.605
- (٤) Namik Kemal, a.g.e., C.III, s. 27
- (٥) فريدون ، سبق ذكره ، ج ١ ص ٣٥٧ .
- (٦) Uzunçarsili, İsmail Hakkı, a.g.e., a.c., S. 265
- (٧) Namik Kemal, a.g.e., a.c., s. 49
- (٨) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٢٧ .
- (٩) عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٢٦ .

الفصل السابع

الحرب الصفوية العثمانية الثانية وأثرها في توقف الفتوح الإسلامية عند فيينا

عُرف عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ - ٩٤٧ هـ) بالعصر الذهبي للدولة العثمانية، ففيه بلغت الدولة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، وإذا كان الأتراك قد لقبوا السلطان سليمان بـ (القانوني) لكثرة ما صدر في عهده من قوانين فإن الأوربيين لقبوه بـ (المعظم) .

لأنه استطاع بالإضافة إلى علمه وعرفانه وتشجيعه الفنون وكثرة ما بلغ من توفيق - استطاع أن يحتفظ بهيبته في عصر كان يعيش فيه من المشاهير : شارل الأول وفرانسوا الأول وليون العاشر وكريستوف كولب وكورنيس^(١) ... الخ . ولن نكون مبالغين إذا ما وصفنا عصره بعصر الفتوح ، إذ بدأت في عهده الوثبة الإسلامية الثالثة ، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى قلب أوروبا بصورة تعيد للأذهان الفتوح الإسلامية الأولى ومن الجدير بالذكر أن الطريق إلى أوروبا كان أكثر وعورة عما سبق ، إذ ظهرت عوامل جديدة زادت من حدة الصراع مع القوى الصليبية وزادت من قوة تحديها للدولة العثمانية وأهم هذه العوامل :

١ - فتح ميادين جديدة للصراع مع المسلمين بالتفاف البرتغاليين حول الجزيرة العربية ، وتواجدهم في المياه الإسلامية.

٢ - دخول قوى سياسية فنية ساحة الصراع مثل أسرة هابسبورج في الجر

والنمسا وكانت تحلم بامبراطورية كبرى فى شمال الدانوب كذا شارلكان حاكم أسبانيا وهولندا وكان يحلم بالسيادة على البحر المتوسط .
٣ - الصراع بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارلكان حول تركة الإمبراطورية الرومانية فى إيطاليا .

فرضت هذه العوامل على الدولة العثمانية أن تنازل القوى الصليبية فى ميادين ثلاثة :

١ - الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر .

٢ - شرق ووسط أوروبا .

٣ - البحر المتوسط وجنوب غربى أوروبا .

كانت هذه الميادين تشمل نصف الكرة الأرضية تقريبا من حيث المساحة، وكانت تضم أعتى القوى وأشدّها ضراوة ، لذا لم يكن من اليسير على السلطان سليمان القانونى أن يتغلب على هذه القوى التى ما فتئت تنازله حيناً منفردة وأحيانا مجتمعة وأن يواجه الصعوبات الداخلية التى قوبل بها عشية توليه السلطنة ومن أهمها الحركات الانفصالية التى قادها جان بردى الغزالى فى الشام وأحمد باشا فى مصر .

ومهما يكن من أمر استطاع سليمان القانونى أن يواصل مسيرة الفتح فى أوروبا وكانت أهم خطواته :

١ - فتح بلغراد (٩٢٧ هـ) :

وكانت هذه المدينة الحصينة بمثابة درع يحمى وراءه المجريون كلما ناوأوا العثمانيين ومن ثم فإن فتحها كان يعنى حرمان المجر من هذا الدرع ، كما أن توسطها للقارة الأوروبية جعل منها قاعدة صالحة لانطلاقات عثمانية أخرى إلى قلب أوروبا وقد استغرق حصارها شهراً كاملاً وكان أهم ما يميزه انضمام طلبة المعاهد الدينية الموجودة فى البلقان إلى صفوف المقاتلين^(٢) طلباً للجهاد مما يدل على أن الدولة العثمانية بدأت تجنى ثمرة جهودها فى سبيل نشر الإسلام فى أوروبا .

٢ - فتح جزيرة رودس :

اتخذها عصبية من الفرسان عرفوا باسم فرسان القديس يوحنا ، قاعدة

لأعمال القرصنة البحرية وكانوا شوكة في جنب الدولة العثمانية مما جعل فتح هذه الجزيرة أمرا حيويا بالنسبة للدولة من ناحية ولنشاط التجارة الإسلامية من ناحية أخرى ، ورغم بسالة الفرسان في الدفاع عن الجزيرة وقوة تحصينها استطاع العثمانيون فتحها وإجلاء الفرسان عنها في عام ٩٢٩ هـ .

٣ - اجتياح المجر وحصار فيينا :

ظلت المجر عدوا تقليديا للعثمانيين منذ أن وطئت أقدامهم شبه جزيرة البلقان فهي إما خصم مباشر أو حليفة لخصم ، ثم كان ما كان من فتح بلغراد فاهتزت أرجاء المجر ورأى ملكها أنه هالك لا محالة ، فعقد تحالفا صليبيا ضم كل جيوش أوروبا وبادر العثمانيون ببلقائه في موقعة موهاج (٩٣٢ هـ) واستطاع الجيش العثماني بفضل إيمان أفرادِهِ وحنكة قادته أن يحرز نصرا ساحقا على هذا التحالف الذي كان يضم أكثر الدول الأوروبية قوة آنذاك ، وزحف إلى عاصمة المجر (بود) فاستولى عليها وحول أكبر كنائسها مساجد وأصبح من حق العثمانيين تولية حاكم المجر ولكن دخول العثمانيين المجر أدى إلى الاحتكاك المباشر مع النمسا ، وكان ملكها فرديناند من آل هابسبورك ومن أبناء عمومة ملك المجر الذي قتل في المعركة لذا كان يرى أنه أحق بعرشها من أى حاكم آخر يوليه العثمانيون فانتزح فرصة عودة السلطان إلى إستانبول وهاجم عاصمة المجر وطرد الحامية العثمانية منها ، مما جعل السلطان سليمان يكر راجعا في عام ٩٣٦ هـ ، ويسترد ما أخذه فرديناند الذي فر هاربا إلى النمسا فتعقبه وحاصر عاصمته وأحكم الحصار وظل يقصف أسوارها طيلة ستة شهور وأصبح قاب قوسين أو أدنى من فتحها وبذا يكون قد قضى على القوة المناوئة الوحيدة في وسط أوروبا ، ولكن طارت إليه أنباء من الشرق جعلته يكر راجعا إلى إستانبول ، لقد كانت نذر الخطر الصفوى بشقيه : (أ) فتن الباطنية والعلوية (ب) الحروب طويلة الأمد .

ظهور فتن الباطنية والشيعة في الأناضول :

أطلقت فتن الباطنية برأسها ، والجيوش العثمانية بعد في خنادقها في وادي موهاج بالمجر ، وبالتحديد في شهر ذى القعدة من عام ٩٣٣ هـ في مكان يسمى بوزوق من أعمال ادنه وقد بدأت بواقعة من الوقائع المعتادة التي يمكن أن تحدث كل يوم ؛ إذ تقدم شخصان بشكوى إلى قاضى السنجق من كاتب التحقيقات (تحرير

الأراضي) فلم يحسن القاضي استقباليهما بل أساء إلى أحدهما وكان من الممكن ألا تتطور الأمور أكثر من أن يرفع المظلوم شكواه إلى الولاية ، ولكن سرعان ما اكفهر الأفق وخرج رجل شيعي يعرف بذي النون ، فرفع يده وإذا بمحشود ضخمة تتحلق حوله ، ولم يمض وقت طويل حتى خرجت جماعات العلويين من كل مكان لتعلن تمردا على الوالي ومن الواضح أن هذه العناصر كانت مبيتة النية على إثارة الفتنة للأسباب التالية :

١ - أن الشاكين كانا - كما يبدو من اسميهما - شيعة ، فأجدهما يدعى خوجه بابا والآخر شاه ولي ...

٢ - تزامن هذه الفتنة مع فتن أخرى في أماكن متفرقة شملت مروحة غطت جنوب شرق الأناضول تقريبا ، مثل فتنة ولي خليفة ودموز اوغلان في (أدنة) وكلاهما من زعماء الشيعة وتمرد ينيجه بك في طرسوس^(٣) .

وكانت هذه الفتن من القوة بحيث لم تستطع القوات الحكومية إخمادها إلا بشق الأنفس .

أما أشد الفتن خطرا وتهديدا لأمن الدولة فقد كانت تلك التي أشعلها الشيخ البكتاشي العلوي اسكندر قلندر جلبى ، والتف حوله ما يربو على ثلاثين ألف علوي^(٤) أعمالوا السلب والنهب في أرجاء الأناضول ورغم كثرة الحملات التي جردها الولاية إليه لم تخمد فتنته فاستغاث الولاية بالعاصمة « الأناضول كله في حالق ما لم ترسل النجدة على جناح السرعة » فخرج الصدر الأعظم على رأس حملة كبيرة ولم يستطع التغلب على قوات قلندر جلبى إلا بالحيلة^(٥) وتم إخماد فتنته في ٩٣٥ هـ . ولم ينقطع جبل الفتن فقد قام شيعي آخر في أدنه عام ٩٣٧ هـ وانتهاز فرصة ضعف الأمن في الولاية نتيجة لمرض الوالي وارتدى قلنسوة الشيعة فالتف حوله الآلاف وزحفوا إلى مبنى الولاية وقتلوا الوالي^(٦) .

وكأى من الفتن كان لهذه الفتن عوامل داخلية ساعدت على إزكاء نارها

مثل :

- ١ - انشغال الدولة بالحروب وتعبئة كل قوتها لها .
- ٢ - سوء تصرف بعض موظفي الدولة .
- ٣ - مصادرة اقطاعيات الفرسان (السباهية) لسبب أو آخر فأصبح هؤلاء

الفرسان - الساخطون - القوة الرئيسية في صفوف المتمردين .

بيد أن التوقيت واتفاق كل هذه الزعامات العلوية في وقت واحد يلقي بظلال صفوية على هذه الأحداث، لاسيما أن الحرب قامت بين الدولتين في أعقاب هذه الفتن مباشرة .

(ب) الحروب العثمانية الصفوية الثانية :

جرت العادة على أن يهنئ حكام المسلمين بعضهم بعضا عند تولي الحكم ، ولكن الشاه إسماعيل لم يهنئ سليمان بتوليته الحكم وكان ذلك إعلانا من الشاه عن عدم الصفاء بين الدولتين، ثم تطور هذا الشعور إلى توتر بعد إرسال الشاه لوفد يتكون من خمسمائة شخص للتهنئة بفتح ردوس عام ٩٢٩ هـ ولم يسمح السلطان إلا بدخول عشرين منهم إلى العاصمة وأُخْتُجِزَ الباقون في اسكدار .

تولى الشاه طهمااسب الحكم بعد وفاة أبيه إسماعيل عام ٩٣٠ هـ ولم يغير من سياسته تجاه الدولة العثمانية ومن ثم لم تتحسن العلاقات بل زادت سوءا بلجوء علامه خان أحد أمراء إيران إلى الدولة العثمانية ولجوء شرف خان الوالي العثماني على تبليس إلى إيران فما كان من العثمانيين إلا أن عينوا الأمير الإيراني واليا على تبليس بعد هروب واليها العثماني (٧) .

ولقد ظلت قصة الهروب من طرف واللجوء إلى الطرف الآخر من الأسباب التقليدية لتردى الأوضاع بين البلدين طوال تاريخ الصراع بينهما .

على أية حال كان استيلاء الصفويين على بغداد واستغاثة حاكمها بالسلطان سليمان سببا مباشرا لزحف الجيش العثماني قاصدا إيران، خاصة وأن السلطان سليمان القانوني كان يسعى وراء هدفين أساسيين :

١ - تأمين ظهر الدولة العثمانية أثناء حروبها في أوروبا بعد الاتفاق الصفوي البرتغالي ونفوذ الأسطول البرتغالي في الخليج العربي . وتهديده للأماكن المقدسة في الحجاز .

٢ - إعادة صناعة الحرير إلى سابق مجدها بعد أن أصابها البوار نتيجة الحصار الذي فرضه سلفه عليها .

وكالعادة تطايرت الرسائل بين الجانبين مهددة بتجريدة واستفتى السلطان سليمان في قتال طهماسب باعتباره مرتدًا^(٨)، وسار الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم قاصدا تبريز ولم يلتق بالشاة ولا بجيشه كالعادة أيضا - فتوجه إلى بغداد حيث دعا السلطان سليمان لدخولها ولضمان تحقيق الهدف الاقتصادي من الحملة توجه سليمان مرة أخرى إلى تبريز، ومثل أمامه مظفر خان محتكر إنتاج الحرير في منطقة جيلان طالبا حماية العثمانيين لتجارة الحرير، ولاشك أن هذا الطلب يدل دلالاة واضحة على عدم قدرة الجانب الإيراني على حماية هذه التجارة^(٩).

اضطر السلطان للعودة إلى استانبول لأنباء مفادها أن فرديناند ملك النمسا يستعد للهجوم من جديد على العثمانيين فانتهاز طهماسب هذه القرصة وظهر بجيشه فاستعاد تبريز ومدينة فان مما أدى إلى عودة الجيش العثماني مرة أخرى واستمرت الحرب على هذا المنوال طيلة واحد وعشرين عاما أي من ٩٤١ هـ - إلى ٩٦٢ هـ، التزم خلالها الجانب الإيراني بأسلوب الكر والفر فكان يستعيد بعض ما يحتله العثمانيون إلا أن العثمانيين رموا بكل ثقلهم في العراق العربي ولذا استقر الأمر لهم هناك وكان ذلك مغنما استراتيجيا كبيرا لهم ولطمة كبرى للعدوين المتفاهمين: الصفويين والبرتغاليين.

١ - من حيث الاستراتيجية أصبح للعثمانيين قاعدة بحرية متقدمة في البصرة مكنتهم من توجيه ضربات موجهة للأسطول البرتغالي بحيث قاوموا نفوذه في منطقة الخليج طيلة خمسين عاما، وبفضل هذه القاعدة جاء الأسطول العثماني بعد تطهير سواحل اليمن من الوجود البرتغالي من اليمن إلى بغداد في ٩٤٥ هـ، واستطاع يرى رئيس أن يصل بأسطوله إلى سواحل الهند في ٩٥٩ هـ ولم ينفك أسطول رئيس على عن قطع المسافة بين البصرة والسويس جيئة وذهابا حتى تلاشى نفوذ الأساطيل الأجنبية في المياه الإسلامية، كل ذلك كان له أثره في تشجيع إمارات الخليج على الوقوف أمام النفوذ الأجنبي^(١٠).

٢ - من حيث الإضرار بمصالح الصفويين فمن الواضح أن الوجود العثماني في الخليج العربي قد قوّت عليهم الفرصة للتحالف مع القوى الصليبية هناك رغم سعيهم الدؤوب لهذا التحالف.

٣. - أصيبت آمال الصفويين في الزعامة الإسلامية - في مقتل باستيلاء العثمانيين على العراق العربي حيث توجد عتباتهم المقدسة .

بدأت بوادر الصلح بين الطرفين بعد قيام الجيش العثماني بثلاث حملات متوالية على إيران ونستدل من الرسائل المتبادلة بين الجانبين في هذه الفترة أن الجانب الإيراني كان يطمح في الحصول على المراكز الاستراتيجية في شرق الأناضول مثل قارص وديار بكر وأرزروم ولكن الجانب العثماني كان على دراية بنواياه ، ومن ثم لم يدع له فرصة لتحقيق مآربه^(١١) ونذكر أيضا من هذه الرسائل كم كان يهتم الجانب العثماني ألا يُسب الخلفاء الراشدون الثلاثة في إيران وأن مديح سيدنا علي (كرم الله وجهه) لا يعنى ذم الآخرين^(١٢) .

أولى المعاهدات العثمانية الصفوية :

كان لكل من الطرفين دوافعه لإتمام الصلح فالسلطان سليمان قد حقق أهدافه كما رأينا ويريد حسم الموقف على هذه الجهة ولينفرغ - كما جاء في رسالته - لتحقيق رخاء المسلمين وحماية أوقاف الحرمين الشريفين وحفظ أماناتهما^(١٣) .

أما الشاه طهماسب فقد بات لزاما عليه أن يتفرغ لحل مشكلات بلاده الداخلية ويؤمن سلامة أراضيه من الأوزبك^(١٤) .

وهكذا تم توقيع أولى المعاهدات بين الطرفين في بلدة آماسيا في ٨ رجب ٩٦٢ هـ وبموجب هذه المعاهدة :

استقر الأمر للعثمانيين في آذربيجان وعاصمتها تبريز وفي شرق الأناضول ومراكزه الحصينة وفي العراق العربي وتعهد العثمانيون بتحقيق أمن وسلامة الحجاج الإيرانيين أثناء أدائهم فريضة الحج في الحجاز ، وأثناء زيارتهم . لما يُسمى عندهم بالعتبات المقدسة^(١٥) .

ساد الهدوء على الجهة الإيرانية العثمانية طيلة خمسة وعشرين عاما وقع خلالها بعض الأحداث التي كادت أن تعصف بهذا السلام ومنها هرب الأمير بايزيد بن سليمان القانوني إلى إيران وإكرام وفادته في البلاط الإيراني . طمعا في مساومة أبيه ويمكن أن نستشف من ردود السلطان سليمان على الشاه طهماسب

أن الأخير كانت له بعض المطالب بشأن العتبات المقدسة وتسهيل وصول النذور والصدقات إليها ، وكذا إلى المدينة المنورة «(١٦) .

وفي الواقع أنه بقدر ما كان السلام هشا ، فإن مواضع النزاع كانت من الكثرة بحيث يمكن لأي من الطرفين أن يتذرع بها وكان أهمها :

١ - النزاع بين عشائر الحدود وأمرائها وخاصة في منطقة الكردستان التي كانت تحكمها العشائر المحلية وتتمتع بشبه استقلال عن الدولة ، وكثيرا ما تنازع أمراء هذه العشائر ولجأوا إلى الجانب الإيراني كذلك قبائل البدو حول البصرة(١٧) .

٢ - هجوم عشائر البدو على القوافل سواء التجارية منها أو قوافل الحج وكان المهدوم على أحد القوافل العثمانية المحملة بالحرير من جيلان هي الشرارة التي أشعلت نيران الحرب الثالثة بين الدولتين عام ٩٨٥ هـ (١٨) .

٣ - هجرة القبائل المتمردة ففي إحدى الرسائل المتبادلة بين سليمان القانوني وطهماسب يعد السلطان سليمان بالنظر في أمر القافلة التي هوجمت في طريقها إلى العراق وأمر عودة القبيلة المهاجرة من بلدة طوسج(١٩) .

وهكذا بدلا من أن يضع الصفويون يدهم في يد العثمانيين لحماية الحرمين الشريفين من التهديد البرتغالي ولتطهير البحار الإسلامية منهم ، وضعوا أنفسهم في خدمة الأسطول البرتغالي ، لطعن الدولة العثمانية من الخلف ورغم انتصار العثمانيين عليهم فإن الحروب معهم كانت استنزافا لجهود العثمانيين على الساحة الأوروبية وعرقلة الفتوح الإسلامية كما رأينا .

ومع ذلك تغلب العثمانيون على هذه المعوقات في عهد سليمان القانوني فطهروا البحار من أعداء الإسلام وتعقبوهم حتى سواحل إسبانيا وروع قباطنة الترك مثل خير الدين بربروس وبياله وطورغود سواحل البحر الأبيض المتوسط، وطرردوا الأسبان من طرابلس الغرب ، واتسعت بلاد العثمانيين حتى شملت الأراضي الواقعة من بودابست على نهر الدانوب إلى أسوان بالقرب من شلالات النيل ومن نهر الفرات إلى قرب مضيق جبل طارق .

٥- وامش الفصل السابع

- (١) أحمد السعيد سليمان ، سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٤٤٤ .
(٢) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., a.c., S. 412
(٣) باختصار عن المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٤٦ .
(٤) نامق كمال ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .
(٥) باختصار عن : Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 347
(٦) نامق كمال ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٨٣ .
(٧) من الطريف أن هذا الأمير الإيراني هو في الأصل من مواطني الدولة العثمانية بل خدم في الجيش العثماني وكان فارساً من أصحاب الانقطاعات ولكنه كان علويًا فهرب إلى إيران أثناء تشكيل السلطان سليم الأول بالعلويين في الاناضول فأحسن الشاه إسماعيل استقباله وعينه أميراً على أذربيجان ، ولم تطل إمارته كثيراً إذ دب الخلاف بينهما فهرب خوفاً من تشكيل إسماعيل به ولجأ إلى السلطان سليم الذي أعاده إلى الجيش العثماني واشترك في حروب البلقان . فإذا عدنا إلى الوالي العثماني على تبليس شرف خان وجدناه كردى الأصل كان تابعاً للصفويين ثم هرب منهم إلى السلطان سليم الذي عينه والياً على تبليس ثم كان عودته إلى إيران في ٩٣٩ هـ .
(٨) فريدون ، سبق ذكره ، ج ٩ ، ص ٥٢٩ / ٥٣٠ .
(٩) Olson, R.,
(١٠) لمزيد من التفاصيل ، انظر :
عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ١٤٢ .
جمال زكريا قاسم ، النزاع البريطاني العثماني في الخليج العربي ، مجلة دراسات ما قبل العهد العثماني ، تونس ، ١٩٨٢ ، ص ٣٥٦ .
نوال حمزة الصيرفي . النقود البرتغالية في الخليج العربي ، الرياض ١٤٠٣ هـ ، ص ١٤٥ .
(١١) فريدون ، المرجع السابق ، ص ٥١٢ .
(١٢) المرجع السابق ، ٥١٠/٥١٢ .
(١٣) نفس المرجع ، ص ٥٠٦/٥٠٧ .
(١٤) عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٣٨/٢٣٩/٢٤١ .
(١٥) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 361
(١٦) فريدون ، المرجع السابق ، ص ٥١٦ - ٥٢١ .
(١٧) جودت سبق ذكره ، ج ٢ ص ٢٧٢ .
(١٨) Olson, Ibid, P. 17
(١٩) فريدون ، سبق ذكره ، ٥٢١ - ٥٢٣ .

الفصل الثامن حرب الأربعة والستين عاماً

رغم بوادر الضعف التي بدت على الدولة العثمانية في أواخر القرن العاشر الهجري لم تتخل هذه الدولة عن مسئولياتها الإسلامية ، وواصلت - ولو في شكل محدود - فتوحاتها في أوروبا ، إذ استطاع السلطان سليم الثاني (٩٧٤ - ٩٨٢ هـ) أن يفتح جزيرة قبرص عام ٩٧٨ هـ وأن يلقي بالبنادقة في البحر ، بدافع « تطهير طريق الحج كما ورد في رسالته إلى مسلمي الأندلس وقد بعثوا يستنجدون به ، وتشير نفس الرسالة إلى الحرب الضروس التي كان العثمانيون يخوضونها ضد الصليبيين في البلقان » فإن المسيحيين في بلاد الرملي (البلقان) ما فتئوا يتحصنون في حصونهم وينقضون على المسلمين من حين لآخر ^(١) .

بيد أن البنادقة وقد عزموا على الانتقام ، عقدوا تحالفا قويا مع الإسبان والبابا والنمسا وأنزلوا بالأسطول العثماني هزيمة قاسية في موقعة اينه بجنتي (لبانتى عام ٩٧٩ هـ) ، ورغم هذه الهزيمة استطاع العثمانيون تحقيق انتصارات على الجبهة النمساوية ، وتمكنوا من فرض السيادة على إقليم بولونيا (لهستان) متعهدين بحمايتها من الروس عام ٩٨٥ هـ ، واستطاع محمد الثالث (١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ) فتح قلعة أورلو القرية من بلغراد وكانت قد امتنعت على جده سليمان القانوني وفتحت جزيرة كريت عام ١٠٥٥ هـ في عهد السلطان إبراهيم الأول (١٠٤٩ - ١٠٥٨) كذا قلعة نوهزل المنيعه والمطلة على مدينة فيينا عام ١٠٧٤ هـ .

استطاع العثمانيون تحقيق هذه الانجازات من ناحية وأن يصمدوا أمام الهجمات الصليبية الشرسة على جبهات طويلة وفي مناطق مختلفة من ناحية أخرى . لكن ما الذى أصاب الدولة العثمانية لتتردى من موقف القوة إلى الضعف ؟ لذلك عوامل وأسباب عديدة طالما ذكرها المؤرخون ولا مجال هنا لذكرها بل نكتفى بالإشارة إلى أهمها :

- ١ - عوامل داخلية : منها النظم الإدارية وأسلوب الحكم فى الولايات وعدم قابلية عناصر الجيش لتطوير وسائلها الحربية وما إلى ذلك ...
- ٢ - عوامل خارجية : منها دخول الروس حلبة الصراع الدولى وتحالفهم مع النمسا وخروج الدول الاستعمارية تبحث عن صيد فى المياه الإسلامية .
- ٣ - أما أهم العوامل قاطبة فهو الحروب العثمانية الإيرانية ، إذ كانت هذه الحروب من الضراوة وطول الأمد ما يكفى لإنهاك العثمانيين وضعفهم ومن ثم عدم قدرتهم على الصمود فى الجبهة الأوروبية مما يعنى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا .

لقد بدأ تراجع المسلمين عن البلقان حين اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قارلوفجه عام ١١١٠ هـ ، إذ بمقتضاها خرجت دولة المجر من قبضتها ثم توالى الهزائم وتوالى التنازلات ، فإذا تابعت تاريخ الحروب العثمانية الإيرانية قبل هذا التوقيع لأدركنا تزامن هذه الحروب مع محاولات الدولة العثمانية الوقوف على قدميها أمام الصليبيين من ناحية ، وطول أمد هذه الحروب من ناحية أخرى فقد امتدت إحداها لتصل إلى أربعة وستين عامًا يمكن اعتبارها متصلة رغم ما تخللها من فترات هدوء على جبهة القتال لم تتعدى كونها هدنات قصار ولنا أن نقسم هذه الحروب الضروس إلى الجولات التالية :

الجملة الأولى (٩٨٥ - ٩٩٧ هـ) :

اهتز عرش الصفويين عقب وفاة طهماسب بسبب نشوب النزاع بين الأسرة الحاكمة على العرش ، وانقسمت هذه الأسرة على نفسها بين سنة وشيعة واستطاع الجناح السننى بزعامة بريهان ابنة الشاه طهماسب بالاستعانة بالعشائر

الافشارية تولية الشاه إسماعيل الثانى الذى كان سجيناً فى قلعة الموت^(٢) بيد أن جناح محمد خدابنده تغلب فى النهاية ليستقر له أمر حكم إيران (٩٨٥ - ٩٩٥ هـ) ، وكان يكن شعوراً عدائياً ضد العثمانيين ظناً منه أنهم وراء ما حدث من صراع على الحكم ، فإذا أضفنا إلى ذلك سعيه إلى تحقيق تماسك فى الجبهة الداخلية بتكتلها لحرب. خارجية ، أدركنا كم كان الجانب الصفوى متحفزاً لحرب جديدة ضد العثمانيين .

ولم يكن المستفيدون من الحرب فى الجانب العثمانى قلة ، إذ كان والى أرضروم ووالى فان يتطلعان إلى قيادة الحملة ، وكان السلطان يتوقع حرباً سهلة عليها ترفع من الروح المعنوية لجنوده العائدين من إحدى الهزائم الأوروبية ولذا لم تنجح جهود الصدر الأعظم محمد صقولى باشا لمنع الحرب^(٣) .

موقعة المشاعل :

وكان هجوم الإيرانيين على إحدى قوافل الحرير العثمانية أثناء خروجها من جيلان سبباً كافياً لاندلاع الحرب^(٤) . واتجه الجيش العثمانى شرقاً فاستولى على تفليس ، حيث انضم إليه جيش عادل كراى حاكم القرم ، والتحم الجيشان وهزم جيش القرم ، مما أدى إلى جرأة الجيش الإيرانى فلم يفر من ساحة القتال كالعادة وحمل وطيس القتال بين الطرفين حتى غشيها الليل فلم يأبها به وواصل القتال على ضوء المشاعل ولذا أطلق على هذه الموقعة (موقعة المشاعل) ، وبلغت خسائر الإيرانيين فيها سبعة آلاف قتيل^(٥) .

لم تحسم نتيجة الحرب لأى من الطرفين واستمرت المفاوضات إلى أن تولى الشاه عباس الأولى (٩٩٥ - ١٠٣٧ هـ) الحكم بعد تنازل أبيه ، وقد أثر الشاه عباس الصلح لأسباب عدة من أهمها :

- ١ - قويت شوكة قبائل الأوزبك فأراد أن يتفرغ للقضاء عليها .
- ٢ - كسب المزيد من الوقت لبناء جيش قوى .

لذا لم يعترض الشاه عباس على شروط العثمانيين للصلح على أساس بنود معاهدة آماسيا (٩٦٢ هـ) بحيث يحتفظ العثمانيون بما فى حوزتهم من مدن بتابعها^(٦) وجاءت أهم بنود معاهدة استانبول الأولى كالآتى :

١ - احتفاظ العثمانيين بمدن وأقاليم : تبريز وآذربيجان وقره باغ وكنجه وقارص وتقليس وشهرزور ونهوند ولورستان .

٢ - توقف الخطباء ودعاة الشيعة عن سب الخلفاء الراشدين والسيدة عائشة (رضى الله عنهم) .

واحتفظ الجانب العثماني بالأمير الإيراني حمزه ميرزا كرهينة خوفا من اخلال الجانب الإيراني بالاتفاق^(٧) .

التحالف الصفوى الأوروبى :

ظل الجانب الإيراني ملتزما بالاتفاق موحيا بأنه تخلى عن كل ما يعكر الصفاء بين الدولتين ، فتخلى الشاه عباس عن علويته المتطرفة في رسائل للعثمانيين وبدأ يستهلها بالسلام على الخلفاء الراشدين الأربعة^(٨) .

كان للشاه عباس ما أراد فتخلص من مناوئيه الأوزبك ثم شرع يبنى جيشه مستعينا بضابط بريطاني مغامر انطواني شيرلى Antone Shirly^(٩) من ناحية ، وبدأ اتصالاته مع الجبهة الصليبية عله يجد حليفا ضد الدولة العثمانية من ناحية أخرى ، فقدم عروضاً للأسبان - عن طريق البنادقة - لكى يتقاسما أراضي الدولة العثمانية ، فتحصل الأولى على الجزء الأوروبى وتستأثر الثانية بالآسيوى ولم يكن هذا العرض سوى واحد من عروض كثيرة حملها سفراء إيرانيون كانوا يقطعون المسافة بين أوروبا وإيران جيئة وذهاباً^(١٠) . من ذلك إرسال وفد فى عام ١٠٠٨ هـ برئاسة السير أنطون شيرلى إلى كل من البابا وملكة انجلترا ورئيس البندقية وملوك كل من فرنسا وبولونيا فى الوقت الذى كانت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا مشتعلة الأوار^(١١) .

ولم تكن هذه الاتصالات بخافية على السلطان العثماني الذى كتب إلى الشاه قائلا :

« علمنا بتصرفات لا تصدر عن عاقل قط ، فلم يعد خافياً علينا أمر سفاراتك إلى الكفرة ، ونحن نعرف أيضاً أن الهدف من هذه السفارات هو إرضاء هوى فى نفسك وإشباع نزعة توسعية تتغلب عليك ، وهى تتفق وأهداف الكفرة الأعداء ، إنك مع الكفرة على اتفاق ، ومع المسلمين الموحدين فى نفاق ، توهمت

أنك تستطيع أن تغافل سلطان العالم وخادم الحرمين المحترمين ، هيهات »^(١٢) .

الجلوة الثانية (١٠١٢ - ١٠٢١ هـ) :

لم ينتظر الشاه عباس حتى تؤت اتصالاته الأوروبية ثمارها إذ وافته الفرصة حين شغل الجيش العثماني بشاغلين عظيمين :

أحدهما خارجي وهي الحرب النمساوية التي قسمته على أربع جبهات تشمل معظم قارة أوروبا .

والآخر داخلي وهو ثورات الجلالين^(١٣) في الأناضول ثم وفاة السلطان محمد وتولى أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ) الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد .

بعد تبادل الرسائل والتناوب بالألقاب كالعادة^(١٤) ياغت الشاه عباس الحامية العثمانية في تبريز واستولى على المدينة ، ورغم قيام الجيش العثماني بحملتين متواليتين على إيران لم يحقق أى انتصار بسبب ما كان يقع من خلافات بين القادة العثمانيين من ناحية ، وتوالى قلاقل الجلالين من ناحية أخرى ، وأخيرا بدأت الحملة العثمانية الثالثة تحقق بعض النجاح على الجبهة الإيرانية بقيادة قيوجى مراد باشا عام (١٠١٩ هـ) عندئذ أرسل الشاه يطلب الصلح وفرض شروطه على العثمانيين هذه المرة ، فحصل من العثمانيين على : تبريز وشيروان وروان مقابل أن يدفع مائتى حمل حرير سنويا ، وكانت تلك أهم البنود التي شملتها معاهدة استانبول الثانية (١٠٢١ هـ) فضلاً عن البنود التقليدية مثل عدم الاعتداء على القوافل والكف عن سب الخلفاء الراشدين^(١٥) .

الجلوة الثالثة (١٠٢٤ - ١٠٢٨ هـ) :

لم يطل التزام الشاه عباس بما قطعه على نفسه في معاهدة استانبول ورفض إرسال الحرير المتفق عليه قائلا : « لن أدفع جزية للعثمانيين » واجتجز نائب الصدر الأعظم الذي كان سفيرا بين الجانبين^(١٦) مما يعنى الإعلان عن حرب جديدة وقد حفزه إلى ذلك عاملان :

الأول : اخفاقه مع امبراطور ألمانيا .

الثاني : تفاقم الاضطرابات وحركات التمرد بين جنود الانكشارية في الجيش العثماني ، تلك الاضطرابات التي بلغت حد عزل السلطان مصطفى الأول (١٠٢٦ - ١٠٢٧ هـ ، ١٠٣١ - ١٠٣٢ هـ) .

بدأ الشاه عباس بالمناوشة ، وطلب الصلح ثم أعرض ، فدخل الجيش العثماني مدينة تبريز وانسحب منها عباس إلى أردبيل واستولى عليها ثم عاود طلب الصلح بشرط تخفيض كمية الحرير المفروضة على إيران إلى مائة حمل فقط وكانت مطالب العثمانيين كالآتي :

« قبول الحدود التي تحددت في عهد سليمان القانوني دون أى تغيير ومن ثم انسحاب الإيرانيين من حول بغداد وشهرزور إلى سناجق همين ودرنه ودرتلك وتظل هذه السناجق وتوابعها في حوزة الإيرانيين في مقابل أن تظل آخسقه وتوابعها وقلعة قارص وتوابعها في حوزة العثمانيين ، وعلى أن يتعهد الجانب الإيراني بعدم الاعتداء عليهما ، وأن يكف الإيرانيون عن سب الخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين »^(١٧) . شكلت هذه المطالب بنود الاتفاق الذي تم توقيعه بين الشاه عباس والسلطان عثمان الثاني (١٠٢٧ - ١٠٣١ هـ) عام ١٠٢٨ هـ^(١٨) .

الجولة الرابعة (١٠٣٣ - ١٠٤٩ هـ) :

رأى الشاه عباس الوقت مناسباً للقيام بعمل عدائي ضد الدولة العثمانية التي كانت تعيش آنذاك ما عرف في التاريخ العثماني باسم (هائله عثمانية) أى النكبة العثمانية إذ أدى تمرد قوات الانكشارية إلى عزل السلطان عثمان الثاني ثم قتل ، تزامن هذا الحدث مع تمرد قائد الحملة العثمانية في بغداد ورفع عصا الطاعة على والي العثماني يوسف باشا ثم قام بقتل والي وتولية نفسه عليها ، ثم لجأ إلى الشاه عباس عندما علم بقدوم الحملة التأديبية ، فانتهر الشاه هذه الفرصة وسارع بالاستيلاء على بغداد وولى صوباشي بكر عليها عام ١٠٣٣ هـ وأعقبها بالاستيلاء على كركوك والموصل ثم ولاية آخسقه في أقصى الشمال .

حين تهيأ السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ) للتصدي لهذا الهجوم كان عليه أن يواجهه في الداخل : فتنة الأباطية في شرق الأناضول والدروز

في الشام والانكشارية في استانبول . أما في الخارج : بولونيا وخانات القرم
والتمسا . ورغم ذلك تحرك الجيش العثماني قاصداً بغداد ثم حاصرها ولم يستطع
فتحها بل هزم أمام الجيش الإيراني وعاد الصدر الأعظم عام ١٠٣٦ هـ
إلى العاصمة صفر اليردين فعزل من منصبه ، وتوجهت حملة إلى الشمال لتحرير
(آخسقه) ولم يكن نصيبها من النجاح أوفر حظا من مثيلتها إلى بغداد ، بل
تعرضت لهجوم الأباظيين أثناء الانسحاب مما أدى إلى فداحة خسائرها .

تولى الصدارة خسرو باشا وكان مدركاً أن الجيش العثماني لن يحقق أى
انتصار في الخارج ما لم يقض على القلاقل الداخلية ، وبدأ بالقضاء على الأباظيين
بعد لجوئه إلى الحيلة ، ثم توجه إلى الموصل وحاصرها طيلة اثني وأربعين يوماً
وفتحها بعد أن هزم الصفويين في موقعة مهربان عام ١٠٣٨ هـ ولم يتحرك
إلى بغداد إلا بعد أن أتم بناء قلعة (كل عنبر) أمام الموصل وأحكمهم تحصينها ثم
تحرك إلى دركوزين ببغداد وحاصرها، لكنه فشل في دخولها لتذمر الجنود وحلول
فصل الشتاء فرفع عنها الحصار وعاد إلى الموصل .

لم يحسم أمر هذه الحرب إلا خروج السلطان مراد بنفسه على رأس جيش
كبير قام بتطهير جيوب الفتن في الأناضول ثم اتجه إلى روان فاستولى عليها
عام ١٠٤٥ هـ، وأتبعها بقارص ثم عاد إلى استانبول . وفي عام ١٠٤٧ هـ قاد
السلطان الجيش بنفسه أيضاً وتوجه إلى مدينة قونية للتمويه، منها إلى حلب فالموصل
وعسكر بالأعظمية فأرسل الإيرانيون يطلبون الصلح، وبعد مفاوضات استمرت
زهة عام وقع الطرفان معاهدة قصر شيرين في محرم ١٠٤٩ هـ وبمقتضاها تحددت
حدود تركيا - إيران الحالية وكانت أهم بنودها :

- عودة العراق العربى إلى الدولة العثمانية على أن تكون الحدود من ناحية بغداد
على النحو التالى :

- (أ) يؤول للعثمانيين بدره حسن وخانقين ومندى ودرنه والصحارى
الواقعة بين درتنك وسرميل ومضارب عشيرة الجات والقرى الواقعة
غرب قلعة زنجير وقلعة ظالم وما حولها (بالقرب من شهرزور) هذا
عدا بغداد وشهرزور والبصرة بلواحقها .
(ب) تؤول اريفان إلى الإيرانيين .

٢ - في الشمال تؤول الأراضي التالية للعثمانيين : قارص آخسقه وفان بلواحقها ما عدا ذلك يعود إلى الإيرانيين .

٣ - هدم القلاع المتاخمة للحدود العثمانية وهي قلاع :

زنجير وقوطور (بالقرب من فان) وكل القلاع المطلة على قارص .

٤ - الكف عن سب الخلقاء الراشدين والسيدة عائشة والصحابه أجمعين^(١٩) .

هكذا استنفذت هذه الحرب الضروس أربعة وستين عامًا من عمر الدولتين كانت الدولة الدولة العثمانية تحاول خلالها التصدي لاتفاقات التحدى الصليبية، وكان عهد السلطان مراد الرابع يبشر بالخير ، حتى رأى فيه المؤرخون فاتحا من الفاتحين الأوائل ، لكن اخترمته المنية في عام انتهاء الحرب العثمانية الإيرانية أى أنه أفنى سنى حياته في الحرب على جبهة إسلامية .

هوامش الفصل الثامن

- (١) فريلون ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .
- (٢) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.III, S. 55
- (٣) ذهب محمد فريد في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية إلى أن هذه الحرب نشبت بتشجيع من الصدر الأعظم ، لكن المؤرخ التركي اثبت عكس ذلك معتمداً على الوثائق ومضابط جلسات الديوان وهو ما يخلو منه كتاب محمد فريد : تحقيق ، احسان حقى ، بيروت ١٤٠١ ، ص ٢٦١ .
- (٤) Olson, Ibid, P. 17
- (٥) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 60
- (٦) فريلون ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .
- (٧) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 63 ، أما عن الأمير حمزه ميرزا فقد توفى على أثر اصابته بالحمى باستانبول عام ١٠٠٤ هـ .
- (٨) فريلون ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦١ .
- (٩) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 153
- (١٠) Olson, Ibid, P. 18
- (١١) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 64
- (١٢) فريلون ، سبق ذكره ، ص ١٩٠ .
- (١٣) كان منتهى هذه الفتن - في حقيقة الأمر - من الفرسان أصحاب الاقطاعات الحربية ممن صودرت اقطاعاتهم بعد هروبهم من الميدان اثناء الحرب ، لكن أولاهما اشعلها شخص يدعى جلال في ولاية يوزوق وكان أحد الهاربين من مطاردة السلطان سليم الأول للشيعة في الاناضول قبل حرب جالديران (ناسق كمال ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٣١) .
- (١٤) في رسالة من الصدر الأعظم إلى الشاه عباس يعبره بانتصارات العثمانيين مع كل الحروب مذكرا اياه بأن الانتصار الوحيد لهم إنما حققوه ضد التتار ويقصد جيش القرم (فريلون ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٧٨/١٧٤) .
- (١٥) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S.
- (١٦) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
- (١٧) فريلون ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

- (١٨) وردت هذه البنود في :
نعيمًا ، تاريخ نعيمًا ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٧٢١ - ٧٢٢ .
(١٩) باختصار عن :

Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 158-206

Danismend, Ismail Hamdi, a.g.e., C.III, S. 300-383

- وقد وردت بعض هذه البنود نقلاً عن مصادر انجليزية في :
عبد العزيز توار ، العلاقات العراقية الإيرانية ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٤ ، ص ٨٥ - ٨٦ .
(٢٠) وردت أسباب النزاع في التقرير الذي كتبه المبعوث العثماني أمين الخزانة اسعد افندي كالآتي :
(أ) صراع شخصي بين والي بغداد وولي العهد الإيراني .
(ب) مؤامرات الولاة الاكراد وخوفهم من الجانب الايراني .
(ج) الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع الإيرانية ومغالة الموظفين العثمانيين في تقديرها .
(د) لجوء بعض العشائر إلى أخذ الجانبين سعيًا وراء المشاقي والمصايف .
(باختصار عن جودت ، سبق ذكره ، ج ٢ ، من ص ٢٤٢ - ٢٤٥) .
وكانت أهم بنود معاهدة أرضروم كالآتي :
١ - الالتزام بالحدود المحددة بمعاهدة ١١٥٩ .
٢ - تسهيل الحج واعفاء البضائع غير التجارية للحجاج .
٣ - عدم عقد اتفاقات مع موظفي الدولة العثمانية .
٤ - عدم تدخل أي دولة في الشؤون الداخلية للدولة الأخرى .
٥ - عدم فرض رسوم اضافية على الحجاج ومعاملة التجار اسوة بغيرهم من تجار الدولة العلية .
٦ - تحديد الرسوم الجمركية بـ ٤٪ .
٧ - تحديد المصايف والمشاقي لعشائر حيدرآلي وسيبكلي ، وعدم قبول اللاجئين منهم .
٨ - تسليم الموارد والأموال التي صادرتها الدولة العثمانية من التجار الايرانيين .
٩ - اقامة سفير لكل من الدولتين لدى الأخرى لمدة ثلاث سنوات بالتناوب .
(باختصار عن المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص (٢٢٨ - ٢٣٥) .
(٢١) عبد العزيز توار ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

الفصل التاسع

ضعف الدولتين وخضوعهما للنفوذ الأوروبي

ساد الهدوء الجبهة الإيرانية العثمانية في أخريات حكم شاهات الأسرة الصفوية، وبالتحديد من عهد صفى الأول (١٠٣٧ - ١٠٥٢ هـ) إلى الشاه حسين (١١٠٥ - ١١٣٥ هـ) وكان السبب الرئيسى الكامن وراء هذا الهدوء هو انشغال الأسرة الصفوية بالنزاع فيما بينها من ناحية وبين العشائر الاجتياحية الأفغانية من ناحية أخرى .

وفي أخريات حكم الشاه حسين بدأت إيران تتذمر من زيادة الرسوم الجمركية التى فرضتها الدولة العثمانية على البضاعة المارة بأراضيها - طبقاً للمواثيق التى أقرتها الدولتان ، وكانت الدولة العثمانية بدورها ترى أنها بذلك تؤدى لإيران خدمة لم تكن لتناها من قبل ، فلم يكن فى مكنة التجار الإيرانيين أن يخرقوا بلغراد قاصدين النمسا ، بل كانوا يلجأون إلى الطرق البعيدة فى شمال أوروبا ، مما كان يرهقهم بل ويؤدى إلى موتهم أو نفوق دوابهم . وكان ذلك من أسباب ندرة البضائع الفارسية فى النمسا وارتفاع سعرها، ولكن بعد الاتفاق مع إيران وعقد الصلح مع النمسا انسابت البضائع الإيرانية إلى النمسا مباشرة ومن البديهي أن تحصل الدولة على ضرائب مقابل مرور قوافل التجارة عبر أراضيها ، فإن حماية هذه القوافل وتقديم الخدمات لها يكلف الدولة الشيء الكثير^(١) .

أسفرت الدولة العثمانية بالدفتردار دُرِّي أفندي لشرح الموقف برمته في البلاط الإيراني ويبدو من التقرير الذي كتبه للسلطان عن سفارته أن الأمور لم تكن على ما يرام بين الدولتين^(٢) ولم يمض طويل وقت حتى جاءت تقارير ولاية الحدود العثمانيين تفيد بأن إيران تموج بالاضطرابات بعد وفاة الشاه حسين وأن الأفغان اجتاحوا البلاد والروس أيضا ينتظرون على الحدود الشمالية لإيران وكان لهذه الأنباء أثرها في إرباك السوق المالية في الدولة العثمانية أيضا إذ بعث التجار الفرنجة والفرس الموجودون في تبريز إلى شركائهم في أزمير واستنبول ليكون أصفهان المحاصرة ويخبرونهم بأن إيران برمتها ضائعة لا محالة^(٣).

عُقد مجلس الحرب في الدولة العثمانية وأجمعت الآراء على أن « جار الدار أحق بدار الجار »^(٤) إذ لم تكن الدولة تخشى مير محمود الأفغاني (١١٣٥ - ١١٣٧ هـ) بقدر ما كانت تخشى دخول الروس فارس ؛ فقد انتهزت الحكومة الروسية الناهضة بقيادة قيصر الأكبر هذه الفرصة فسعت إلى التوسع جنوبا على حساب فارس مدعية أنها تعمل على إنقاذ فارس من الطاغية الأفغاني مير محمود^(٥).

وصلت التقارير إلى حكومة السلطان أحمد الثالث (١١٤٣ - ١١٥ هـ) من ولاية الحدود وهم : حسن باشا والى بغداد وحسين باشا زاده أحمد والى البصرة ومصطفى باشا والى الموصل وكوبرلي زاده عبد الله والى فان وإبراهيم والى أرضروم ثم أمراء قارص وجلدر وشهرزور^(٦) . وقد أجمعت هذه التقارير على ضعف الجبهة الإيرانية وأنه آن للسلطان أن يضم إيران إلى الدولة العثمانية فيحقق بذلك عدة أهداف :

- الأول : القضاء على عدو الشرق التقليدي .
- الثاني : تعبئة كافة الإمكانيات المادية والبشرية للقضاء على عدو الغرب التقليدي وهو النمسا .
- الثالث : الوقوف أمام الخطر الذي بدأ يتسرب حديثا إلى ساحة الصراع وهو روسيا القيصرية .

الحروب العثمانية الأفغانية (١١٣٥ - ١١٤١ هـ) :

أصدر شيخ الإسلام في استنبول فتواه التقليدية بأن إيران تعد دار حرب وأن (القزلباشية) هم في حكم المرتدين لأنهم ما انفكوا عن سب الخلفاء الثلاثة وقذف السيدة عائشة ومازالوا يستبيحون قتل أهل السنة ويستحلون نساءهم ويطأون أسراهم من النساء دون زواج^(٧) .

وقد تزامن إعلان الدولة العثمانية الحرب مع اعتلاء مير محمود الأفغاني عرش إيران بعد انتصاره على الأسرة الصفوية وأسر الشاه حسين وأولاده وفرار ولي العهد طهماسب إلى شمال إيران .

على أية حال كانت الحرب العثمانية الأفغانية هذه المرة بمثابة نزهة في البداية فسرعان ما اجتاحت الجيوش العثمانية أقاليم فراس ومدنها الحصينة مثل : روان وشهرارد وآباد ونمجان ونهاوند وتبريز ولور وكنجه وهمدان ولاشك أن هناك عدة عوامل ساعدت العثمانيين على هذه الاجتياح :

١ - انقسام الفرس على أنفسهم بين مؤيد ومعارض للحكم الأفغاني خاصة في عهد مير محمود .

٢ - ضعف الجيش الأفغاني الذي لم يستطع استمالة العناصر الإيرانية ولم يتمكن من استجلاب عناصر أفغانية من قندهار^(٨) .

٣ - عودة العشائر الفارة من الحروب الأفغانية الصفوية في ظل حماية جيش قوى مثل الجيش العثماني الذي أعاد إلى هذه العشائر منازلها وطواحينها بل وقراها^(٩) .

بعد أن توفي مير محمود خلفه أخوه أشرف خان (١١٣٧ - ١١٤٢ هـ) وكان - على عكس أخيه - سياسياً مرنًا على قدر كبير من الدهاء فأراد أن يصيب العثمانيين في مقتل ، فأرسل سفيره إليهم يذكرهم بأنهم يحاربون اخوتهم في المذهب - أي السني - بينما يجب أن يتكاتفوا ضد البصفويين الشيعة ، ولذا يجب على الدولة أن ترد إليه كل ما أخذته من مدن والعودة بالحدود إلى ما كانت عليه^(١٠) .

والواقع أن (سياسة الالتفاف) هذه كان لها أشد الأثر في الجبهة العثمانية نفسها فقد هزّت أرجاء الدولة وخشيت الحكومة من تفاقم المعارضة ، فأرسلت

تستفتى العلماء في كافة أرجاء الدولة وجمعت منهم فتاوى كثيرة دارت حول مضمون واحد « أنه لا يجوز وجود امامين (خليفتين) في وقت واحد ، وعلى أحدهما أن يبايع الآخر » وطلب من أشرف خان البيعة للسلطان العثماني ، ولما رفض اعتبر باغيا ووجب قتاله^(١١) .

ولكن كانت جهود العلماء في الدولة العثمانية قد خففت من حدة معارضة العثمانيين أنفسهم ، فإنها لم تمنع تسرب عشائر التركان والأكراد السنية إلى الجانب الإيراني الذي اتبع حرب العصابات ضد الحاميات العثمانية في المدن والقلع^(١٢) مما جعل بقاء الجيوش العثمانية في إيران أمرا مكلفا فاضطر السلطان لقبول الصلح مع أشرف خان عام ١١٤٠ هـ وأهم ما جاء به :

- ١ - أن تستبقى الدولة العثمانية ما فتحتة تحت يدها .
- ٢ - أن تدخل الخويزة في إطار الدولة العثمانية .
- ٣ - اعترف أشرف بأن السلطان خليفة المسلمين ، واعترف السلطان بأشرف خان شاه على فارس^(١٣) .

نادر شاه وابتداع المذهب الجعفري :

استطاع نادر قلى (نادر شاه فيما بعد ١١٤٨ - ١١٦٠ هـ) أن يطرد أشرف من إيران ، وأن يقيم مقامه طهمااسب الثاني آخر ولى عهد للأسرة الصفوية ، ولما ساءت الأحوال خلعه ، وأجلس مكانه ابن عباس الثالث لمدة عشرة أشهر ، ثم توفى عباس فأمنسك نادر شاه بزمام الأمور ، وكان شاهها طموحا رمى ببصره خلف حدود إيران ، لكن كان يجب عليه أن يحزر بلاده ويعيد وحدتها ، وتم له ذلك بعد أن حرر شمال بلاده من الروس ، وقضى على فلول الأفغانيين واتجه إلى الهند واحتل بعض أجزائها ولاشك أن هذه الانتصارات أغرته بزعمه إسلامية ، ولكنه في حاجة إلى سند معنوي خاصة وأنه لا ينتسب إلى عائلة أرستقراطية حاكمة - وكان يعلم أن المذهب الشيعي مسئول إلى حد كبير عن تدهور البلاد وعزلتها عن بقية جيرانها ، والانقلاب الكامل نحو المذهب السني كان أمرا عسيرًا للغاية ، ولذلك اختار الحل الوسط وهو إعلان (المذهب الجعفري) - نسبة إلى الإمام جعفر الصادق - مدعيًا بأنه مذهب مخالف للشيعية

وأُرسِلَ إلى السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨ هـ) يطلب منه الاعتراف به كملك مستقل ، فرفض وكان ذلك معناه حرب جديدة بين الدولتين . وفي نفس الوقت جاء سفير فرنسا إلى السلطان العثماني يعرض عليه تحالف للهجوم على النمسا ، التي اضطرت الأمور فيها بعد وفاة الإمبراطور شارل السادس في ١٧٤٠ م واسترجاع الحور وكل ممتلكاتها منها ويمكنها أن تقف أمام الروس بعد ذلك (١٤) . ولكن كيف تستطيع الدولة العثمانية أن تُقدم على هذه الخطوة وجيهاًل الفرس . بقيادة نادر شاه تزحف إلى بغداد .

وكان العثمانيون على حق في تخوفهم من قوة نادر شاه إذ استطاع أن ينزل بهم هزيمة قاسية على ثلاث جبهات :

- ١ - في بغداد ضد جيش أحمد باشا وإلى بغداد :
- ٢ - في الموصل وديار بكر ضد جيش حسين باشا محافظ الموصل .
- ٣ - وفي قارص بقيادة الصدر الأعظم حاجي أحمد باشا .

وأعقب هذه الحرب توقيع اتفاق في ١١٥٩ هـ يقضى بالعمل بمعاهدة قصر شيرين ١٠٤٩ هـ وحماية الحجاج وعدم تحصيل ضرائب منهم إلا على البضائع التجارية فقط وعدم قبول اللجوء السياسي للفارين من الدولتين (١٥) .

الاستعمار الأوروبي وتقسيم مناطق النفوذ :

ولا يختلف اثنان على أثر هذه الحروب المتواصلة في إنهاك الدولتين وتبديد طاقتهما وبينما كانت قوى العالم الإسلامي تزداد وهنا يوماً بعد يوم كانت الدول الأوروبية الفتية مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا وروسيا تزداد قوة وطموحاً وتزداد صناعاتها ازدهاراً ، ولذا فقد خرجت هذه الدول تبحث عن المواد الخام اللازمة لصناعاتها وأسواق لتصريف بضائعها ولم يكن أمام هذه الدول الاستعمارية صيدا أسمن ولا أسهل من بلدان المسلمين الغنية بكل ما تطلبه الدول الاستعمارية من موارد المواد الخام وأسواق قادرة على ابتلاع كل ما تنتجه ومواقع استراتيجية تشرف على شرايين التجارة العالمية .

على أية حال تمخضت هذه التطورات العالمية الكبرى عن ظهور التنافس بين الدول الاستعمارية على مناطق النفوذ في العالم الإسلامي ، وظهور ما عرف

في التاريخ- بالمسألة الشرقية، حقيقة كان هذا التنافس سببا في الحفاظ على كيان الدولتين لكنه كان حفاظا مؤقتا إذ ما لبثت القوى الاستعمارية أن اتفقت فيما بينها على المناطق التي يمكن تقسيمها أو تلك التي تستأثر بها قوة دون الأخرى ، ومن أمثلة هذا التنافس « عقد المعاهدة الروسية الفارسية في ١٢٢٩ هـ (١٨١٣م) (معاهدة كلستان) سعت إنجلترا إلى عقد معاهدة مع فارس تمت في ١٢٣٠ هـ (١٨١٤م) كان معظمها موجه ضد الروس ، وبذلك تكون إنجلترا قد حصلت على امتيازات واسعة في فارس وجعلت مصير فارس وعلاقاتها مع السلطان الأخرى رهنا بموقف إنجلترا^(١٦) .

ومع تطور الأوضاع وتغير المواقف أمعنت الدول الأوروبية في تأمرها وأمعن المسلمون في غفلتهم أو تغافلهم عما يحيط بهم ، وباتت إيران معزولة في هدم صرح الدولة العثمانية فكلما اعتلى عرشها شاه طموح وكانت الدولة العثمانية في مأزق سارعت إيران بالهجوم والحرب وإذا استعرضنا تاريخ الدولة العثمانية منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجري لوجدناه حافلا بالمشكلات التي كانت تواجهها هذه الدولة سواء تلك الناجمة عن التطورات الدولية التي سبق ذكرها - أو الأزمات الداخلية وعلى سبيل المثال إذا استعرضنا ما كانت تواجهه الدولة العثمانية من أزمات دولية وداخلية حين تعرضت لهجوم فتح على شاه لوجدناها كالاتي :

- ١ - الحملة الفرنسية على مصر والشام (١٢١٣ هـ) .
- ٢ - الحملة الإنجليزية على مصر (١٢٢٢ هـ) .
- ٣ - الحروب العثمانية الروسية (١٢٢٦ هـ) .
- ٤ - وعلى الجبهة الداخلية كانت الدولة العثمانية تواجه :
(أ) العناصر المتمردة على محاولة تحديث الجيش .
(ب) العناصر الانفصالية في الولايات البلقانية والعربية .

وكانت المعاهدة التي عقدت بين الدولتين في أضرهم عام ١٢٣٨ خیر شاهد على النهاية التي انتهى إليها العالم الإسلامي بعد هذه الحروب ، إذ أضرت كل من روسيا وإنجلترا على التواجد في المؤتمر ، وتمت المفاوضات بين إيران والدولة العثمانية بتوجيه منهما ، بينما لم تكن أسباب النزاع تستوجب هذا التدويل للمسألة

ولم تختلف مواد المعاهدة المعقودة عما سبقها من معاهدات^(١٧) .

وبمعنى أدق : « أصبح الصدام بين الصفوية الشيعية والعثمانية السنية يهم كل الاهتمام الدولتين : الإنجليزية والروسية ، وكانت كل منهما ترى أن بقاء الوضع الراهن من حيث الحفاظ على قوة محدودة لكل منهما تحول دون تدهورها الكامل خير من التورط في عمليات اقتسام لهما تؤدي إلى ارتباكات دولية معقدة ، وكانت النتيجة المحتومة هي وقوع الدولتين في براثن الاستعمار .

هوامش الفصل التاسع

- (١) راشد ، تاريخ راشد ، المطبعة العامرة (استانبول) ١٢٨٢ هـ ، ج ٥ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
- (٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٢ وما بعدها .
- (٣) إسماعيل عاصم افندي (كوجوك جليبي زاده) ، تاريخ جليبي زاده افندي ، المطبعة العامرة (استانبول) ، ١٢٨٢ هـ ، ص ٦٢ .
- (٤) نفس الصفحة من المرجع السابق .
- (٥) عبد العزيز نوار ، العلاقات العراقية الايرانية ، سبق ذكره ، ص ١٨ .
- (٦) إسماعيل عاصم افندي ، المرجع السابق ، ص ٦٣ .
- (٧) عن المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- (٨) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، سبق ذكره ، ص ٢٨٧ .
- (٩) إسماعيل عاصم ، سبق ذكره ، ص
- (١٠) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .
- (١١) نفس المرجع ، ص ٣٥٤ :
- (١٢) مثال ذلك ما فعلته العشائر التركمانية والكردية في جيلان (المرجع السابق) ص ٤٨٤ .
- (١٣) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .
- (١٤) محمد فرياد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقى ، بيروت ، ١٤٠١ هـ ، ص ٣٢٤ .
- (١٥) Osmanli Tarihi, age., C. IV, B.I, S. 309
- (١٦) عبد العزيز نوار ، العلاقات العراقية الايرانية ، سبق ذكره ص ٢٥٢ .
- (١٧) نفس المرجع ص ١٨ .

المراجع

(أ) ، مراجع عربية و مترجمة :

- ١ - ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ٩ .
- ٢ - أحمد السعيد سليمان ، الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٢ .
- ٣ - أحمد كتابجي ، فضائل الترك في أدب الجاحظ ، بيروت .
- ٤ - جمال زكريا قاسم ، النزاع البريطاني العثماني في الخليج العربي ، مجلة دراسات ما قبل العهد العثماني ، تونس ، ١٩٨٢ .
- ٥ - حسين مجيب المصري ، من أدب الفرس والترك ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ
- ٥ - عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- العلاقات العراقية الإيرانية ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٤ .
- ٧ - عبد النعيم حسنين ، السلاجقة في إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠
- ٨ - علي الشامي ، الشيعة في إيران ، تونس ، ١٤٠٠
- ٩ - الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم ، ذيل الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، بيروت ، ١٤٠١ هـ
- ١٠ - محمد فؤاد كوبرلي زاده ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١١ - نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ

١٢ - يحيى بن حمزة العلوي ، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بدير عون وآخرون ، الإسكندرية ، ١٩٧١ .

(ب) مراجع تركية عثمانية :

- ١ - إسماعيل عاصم أفندي ، تاريخ جليبي زاده ، استانبول ، ١٢٨٢ هـ
- ٢ - جودت ، أحمد ، تاريخ جودت ، استانبول ، ١٣٠٢ هـ ، ج ١ ، ٨ ج ١٢
- ٣ - راشد ، تاريخ راشد ، استانبول ، ١٢٨٢ هـ ، ج ٥ .
- ٤ - فريدون ، منشآت سلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ النشر ، ج ١ ، ٢
- ٥ - محمد جلال ، فاتح سلطان محمد ثاني ، استانبول ، ١٣٠٨ هـ

(ج) مراجع تركية حديثة :

1. Banarli, Nihad Smi, Resimli Türk Edebiyeti Tarihi, Istanbul, 1971
2. 1Danismend, Ismail Hamdi, Isahli Osmanli Tarihi Koronolojisi, Istanbul, 1971
3. Namik Kemal, Osmanli Tarihi, Nesr. Ulviye Ilgar, Istanbul, 1974, I, II, III.
4. Pekolcay, Islamî Türk Edebiyatı, Istanbul, 1973
5. Hizmetli, Sabri, Osmanlılardan önce Anadolu'da Siilik Problemi, I.I.E.D., Sayı 5, Ankara 1982.
6. Hulusî, Yavuz, Yemen'de Osmanli Hakimiyeti, Istanbul, 1984.
- 7 Köprülüzade, M. Fuat, Türk Edebiyatında İlk Mutasavflar, 1976
8. Togan, Zeki Velidi, Umûmî Türk Tarihine Giriş, Istanbul, 1981
9. Turan, Osman, Dogu Anadolu'da Türk Devletleri Tarihi, Istanbul, 1973.
10. Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, 1972, C.I,II, III.

(د) مراجع انجليزية :

1. Creasy, Edward, History of Ottoman Turks, Beyrut, 1968.
2. Eliot, Charles, Turkey, in Europe, London, 1965.
3. Gibbons, herberr Adams, The Foundations of Ottoman Empire, London, 1968.
4. Olson, R., The Seige of Mousul and Ottoman Persian Wars, Lodon, 1976
5. Show, Stanford, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge Press, 1976.

(هـ) دائرة المعارف الإسلامية باللغتين : العربية والتركية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٦
الفصل الأول : فتنة الباطنية بالأناضول قبل قيام الدولة العثمانية.....	٧
الفصل الثاني : قيام الدولة العثمانية وجهادها الإسلامى فى الأناضول	١٧
الفصل الثالث : الوثبة الإسلامية الأولى وانتكاسها	٣٣
الفصل الرابع : الوثبة الإسلامية الثانية ومحاولة إجهاضها	٣١
الفصل الخامس : جذور الصراع الصفوى العثمانى	٤١
الفصل السادس : بداية الحروب الصفوية العثمانية ونتائجها	٥١
الفصل السابع : الحرب الصفوية العثمانية وأثرها فى توقف الفتوح الإسلامية عند فيينا	٥٩
الفصل الثامن : حرب الأربعة والستين عاماً	٦٩
الفصل التاسع : ضعف الدولتين وخضوعهما للنفوذ الأوروى	٧٩
المراجع	٨٩
الفهرس	٩٢

رقم الإيداع ٨٧/١٧٨٩
الترقيم الدولي ٠-٨٩-١٤٣٠-٩٧٧

طبعة المصينة - بت. ٦٨٣٢٥٦

هذا الكتاب

هذا الكتاب إسقاط للماضي
على الحاضر ، وفيه عبرة لمن
يعتبر في المستقبل ، فكم في
التاريخ من دروس وعبر ...

يعرض مؤلفه فتنة من الفتن
التي عصفت بآمال المسلمين ،
وطاحت بأحلامهم ، وقلّصت
بلادهم ، والمؤلف إذ يعرض هذه
الصفحة من تاريخ الجهاد
الإسلامي في أوروبا ، يعتمد على
الوثائق والمصادر التاريخية
ولاسيما ما كُتب منها باللغة
التركية العثمانية وهي مجال
تخصصه ودراساته .

ويسرنا أيها القارئ الكريم أن
نقدم لك هذا الكتاب .
وعلى الله قصد السبيل .

To: www.al-mostafa.com